رواية

حصة من الفرح

د. أروى يحيى الإرياني

2023

حصة من الفرح

(رواية)

د. أروى يحيى الإرياني

الموضوع: الروايات

العنوان: حصة من الفرح

عدد الصفحات: 194

التأليف: د. أروى يحيى الإرياني

قياس الصفحة: 14× 21سم

صورة الغلاف: الفنانة اليمنية سحر حسن اللوذعي

مراجعة لغوية وتحرير: الأستاذة آلاء الرياشي

lolykareem2689@gmail.com

الطبعة الأولى

2023 م

جميع الحقوق محفوظة:

يمنع طبع هذا الكتاب أو جزء منه بكل طرق الطبع والتصوير والنقل والترجمة والتسجيل المرئي والمسموع الحاسوبي وغيرها من الحقوق إلا بإذن خطي من المؤلف.

حصة من الفرح

(1) الصعود إلى صنعاء

جلست بجهة النافذة ومن جانبي أمي ثم أخي سيف، جلس راكبان بجانب سيف، وأربعة في المقاعد الخلفية، واثنان في الأمام بجانب السائق، فكنا جميعا مع السائق اثني عشر راكبا، داخل سيارة الأجرة –البيجو– التي تتأهب للانطلاق، كانت أغراضنا أمامنا فليست كبيرة ولا كثيرة حتى نضعها على سطح السيارة مثلما فعل بقية الركاب، انطلقت السيارة تاركة مدينة الحديدة خلفنا، انطلقت تلوك الطريق تحت عجلاتها والهواء الساخن من النوافذ المفتوحة يلفح وجوهنا متجهة إلى العاصمة صنعاء، بداية رحلة لا أعرف إلى أين تقودنا، شغّل السائق القرآن الكريم وساد الصمت الجميع، سرحت وذهبت إلى الماضي ووجدت نفسي أتوغل إلى ما قبل تواجدي على هذه الأرض، تزوجت أمي صغيرة وأنجبت ولدين، خالدا وجميلا، ثم جئت بعد ثلاث سنوات، ثم أخي سيف بعد أربع سنوات، تركَنا أبي بعد شعوره بثقل المسؤولية، لم يجد عملا يمنحه الاستقرار، فرحل ببساطة تاركا أمي وحيدة مع أطفالها دون معيل ودون أي إمكانية لعمل يقينا شر الحاجة، كنت وقتها في الخامسة عشر، لا ندري أين ذهب؟ هناك من يقول إنه رحل إلى السعودية عن طريق التهريب، ومنهم من يقول إنه رآه راكبا سفينة من عدن

متوجها إلى جيبوتي، وكثير أكدوا أنه في الشوارع يهيم فاقد العقل، ولا ندري ما هي الحقيقة؟ ولكن الحقيقة الوحيدة التي أعرفها أنه تركنا.

مضت سنتان بعد رحيل أبي، وكأن أخي الأكبر خالدا قد نبتت له أجنحة، فطار وراء أحلام لا ندري ما هي؟ راكبا البحر لا ندري أيضا إلى أين؟ عانت أمي من رحيل أخي أكثر مما عانت من رحيل أبي، كان بالنسبة لها السند الذي تعتمد عليه رغم أنه كان أيضا قليل الحظ بالعمل. وعليه عشنا في كنف خالي فترة من الزمن، اشتغلت أمي بالخياطة ولم ينجح الأمر لفترة طويلة، وتلطم أخي جميل من عمل إلى آخر حتى توفق في العمل على مركب صيد وتوفر بيده قليل من المال، فخرجنا نستقل بمنزل صغير تزوج فيه أخي وسرعان ما جاء الابن الأول والثاني على التوالي، جاهدتُ كي أكمل مدرستي والتحقت بدبلوم يؤهلني في السكرتارية واللغة الإنجليزية التي أحببتها وأتقنتها إلى حد كبير، فعملت لمدة عام في مدرسة، بعد تخرجي من المعهد، نيابة عن معلمة اللغة الإنجليزية التي كانت في إجازة وَضْع لمدة سنة دراسية، اتفقت معي أن أحل محلها لمدة عام دراسي على أن أعطيها جزءا من الراتب، هكذا ببساطة أجبرتني على إعطائها من راتبي الضئيل بطبيعته. كرهت الاستغلال وكرهت الناس وكرهت بكاء أمي الليلي اليومي وكرهت حتى أخي جميل الذي كان يتذمر دائما ويصرخ على أخي الصغير دائما. صبرت على تلك الحياة على أمل أن تتغير ويظهر الخير في وقتا ما، وطرقت أبواب العمل في كل مكان ولم أجد مكانا لي في بلدي ومدينتي الساحلية، الحديدة،

نشب خلاف كبير بين أمي وزوجة أخي، والتي عبّرت الأخيرة عن ضيقها من بقاء أخي سيف – وقد صار عمره سبعة عشر– في المنزل واضطرارها للبس الحجاب طوال اليوم، فقررت هكذا فجأة أن نرحل أنا وأمي وأخي إلى العاصمة صنعاء!

تركت خلفي البحر الذي كنت أعتبره صديقا أبث له كل همومي وأقص عليه كل أحلامي، تركت الهواء الدافئ وناسي وذكرياتي القليلة، تركت خالي وأخي اللذين تأثرا بقرارنا، داعيين لنا بالتوفيق، ورحلنا إلى صنعاء على تلك السيارة صاعدين دون توقف، جبال وجبال اخترقتها طرقات مرصوصة بالإسفلت وكلما ارتفعنا كلما زاد الجو برودة، كانت أمي تنظر إلى الطريق الذي يبدو لا نهاية له، وتتمتم بالأدعية التي حفظتها طوال حياتها واكتفيت أنا بقول "يا رب كن معنا".

أعادني توقف السيارة فجأة إلى الواقع الغريب الذي أعيشه، توقفنا عند سوق صغير على جانبي الطريق، مزدحما بالباعة، الذين يبيعون منتجاتهم فوق عربات على الرصيف، وترتص الدكاكين الصغيرة والمطاعم المزدحمة خلف عربات جموع الباعة، نزل كل ركاب السيارة، كلهم رجال، لا يوجد نساء إلا أنا وأمي، نزل أخي وابتاع لنا الطعام، أكلناه في السيارة، بينما وقف أخي يأكل متكأً على السيارة، وتفرق الركاب في السوق بعد أن أعلن السائق بأن التوقف لنصف ساعة فقط لتناول الطعام وشراء القات، وفعلا عاد الركاب في الوقت المحدد، وكل منهم قد ابتاع القات وقارورة الماء، وعادوا إلى أماكنهم

وواصلت الرحلة طريقها، شغّل السائق الأغاني الصنعانية المناسبة لجلسات القات، وبدأ الرجال بمضغ القات وكأنهم أصدقاء في مقيل يجمعهم دائما، بدأوا بتبادل الأحاديث والنوادر، وواصلت السيارة الصعود.

راقبت الجبال الهائلة التي نصعدها والتي تحيطنا والمدرجات المزروعة، التي تُشعِر المرء أنه أقرب إلى السماء وأبعد ما يمكن عن الأرض! مع مرور الوقت بمضغ القات هدأ حديث الرجال وبدا كأن كلا منهم رحل سارحا في عالمه الخاص.

توقفت السيارة أمام مركز أمني كبير، إنه مدخل مدينة صنعاء، كان هناك رجال أمن يجوبون حول السيارة ويمازح أحدهم السائق الذي كما يبدو يعرفونه من كثرة مروره من هذا الطريق، وما هي إلا دقائق حتى عادت السيارة تلتهم ما تبقى من الطريق، ودخلنا صنعاء. تناقص الركاب بالتدريج كلما سرنا في شوارعها التي أجهل أسماءها وطرقها، وكل شيء عنها، وأخيرا توقفت السيارة في موقف كبير بجانب عشرات السيارات المماثلة لسيارتنا وكثير من الحافلات الصغيرة، نزلنا وكنا قد أعطينا السائق أجرته بداية الرحلة، ونزل بقية الركاب وانشغلوا بإنزال حقائبهم من سطح السيارة بينما أخذنا أغراضنا وسرنا نحاول أن نعرف أي حافلة يمكن أن تقودنا إلى وجهتنا، كان هناك شباب صغار في السن ينادون الركاب ويحددون وجهتهم، أسماء شوارع لا أعرفها، ولكني أعرف اسم المنطقة التي نقصدها، فصحت رافعة صوتي "حي السنينة" فتلقيت الإجابة مباشرة وصاح أحد المناديين "هنا.. هنا حي السنينة يا

أستاذة"، ركبنا إحدى تلك الحافلات الصغيرة وقد ازدحمت ولكننا وجدنا لأنفسنا حيزا، وتحركنا في شوارع صنعاء، مر الوقت قبل أن يصرخ السائق "حي السنينة"، نزلنا وأعطينا السائق الأجرة ومشينا نحاول أن نجد بيت خالتي كما وصفته لنا.

*****

دخلنا الحي، كان حيا شعبيا بسيطا لا يظهر الشارع فيه إذا كان معبدا أم لا، وعند بقالة كانت خالتي قد أشارت لنا عليها، دخلنا حارة منزلها، الشارع كان ترابيا والبيوت نفسها متقاربة وكل بيت لا يشبه الآخر، شكلوا صورة عشوائية الحجم والألوان والتصاميم.

وصلنا إلى العمارة التي تسكن خالتي إحدى شققها، وكانت عمارة صغيرة تحتوي على ثلاثة طوابق في كل طابق شقة، وكانت شقة خالتي في الطابق الثالث.

استقبلتنا خالتي مرحبة تحتضن كل منا بمحبة رغم ندرة لقاءاتنا وتباعدها، كانت تعلم بقدومنا، وأننا سنبقى عندها بضعة أيام اخترناها لعدم وجود زوجها، لسفره إلى إحدى المحافظات وأيضا لعدم وجود ابنتها سهام، كانت في محافظة تعز لإيصال ملبوسات من مكان الخياطة الذي تعمل فيه إلى محلات هناك تتعامل معهم صاحبة المشغل لبيع ما تخيطه. شقة خالتي عبارة عن ثلاث حجرات صغيرة وصالة ومطبخ وحمام واحد، حجرة خالتي مع زوجها، وحجرة الأولاد؛ أحمد ومحمد، كلاهما أصغر من سهام. وحجرة

سهام التي لم أكن أعرفها جيدا، ربما منذ سنوات عندما جاءوا لزيارتنا في الحديدة عندما كانت جدتي لأمي ما زالت على قيد الحياة، فتعرفت عليها، كنا أطفالا فلم أعد أذكرها جيدا، وكانت أكبر مني بعامين. وضعنا أغراضنا في حجرة سهام، وقدمت لنا خالتي طعام الغداء وجلسنا نأكل وهي تتحدث مع أمي حديثا طويلا متشعبا عن أخبار الناس هناك في الحديدة وهنا في صنعاء.

(2) البحث عن عمل

خرجت اليوم التالي مباشـــرة باكرا تاركة أمي وأخي ســـيفا نائمين، كنت قد تواصـلت مع سـهام قبل أن أحضـر إلى العاصـمة، فشـجعتني وأبدت دعمها مما ساعدني ذلك على اتخاذ القرار بالذهاب إلى العاصمة، وأعطتني بعض التعليمات. وكانت خطتي أن أبحث عن عمل بأي شكل من الأشكال وفي حقيبتي عدة نسـخ من سـيرتي الذاتية جهزتها مسـبقا قبل أن أترك مدينتي، وقليل من المال ومخاوف عن الآتي. خرجت إلى الشـارع وقد بدأت الحركة تـدب فيـه، وقوافـل طلاب المـدراس تخرج من الحي وأخرى تـدخـل إليـه، خرجت دون تصـوّر أو أمل، فقط نصـائح وتوجيهات سـهام ولا شـيء آخر، وحدي مسؤولة عن نفسي وعن أمي وعن أخي، مازلت في الواحد والعشرين من عمري، ولكن مهما كانت خبرتي محدودة والبلد غريب، يجب أن أبدأ، ولا أدرى من أين؟

كان صـــوت أمي يرن في عقلي "لا يمكن أن نبقى في منزل خالتك عندما يعود زوجها من الســـفر"، لدينا أســـبوعان فقط، هل يمكن أن أجد عملا خلال أســـبوعين؟ يســـتحيل!! المدينة كبيرة وأنا أبدأ خطواتي وحيدة، دون دعم ودون شهادات كبيرة ودون خبرة.

تأملت حالي! ها أنا في صنعاء، نعم صنعاء تلك التي كنت أسمع عنها كثيرا من صديقاتي اللاتي يزرنها في أغلب الإجازات، صنعاء تلك الواجهة التي كان كثيرا من الشباب يرحلون إليها، بالنسبة لي لا أعرف إلا أنها مدينة كبيرة

تضج بالحركة والحياة وأن يا للعجب لا بحر لها، كيف يتنفس الناس هنا ومن يشركون في أفراحهم وأحزانهم وأحلامهم؟ لم تكن صنعاء ساحلية ذات أرض منبسطة كتهامة حيث تنام مدينتي، ولكن كانت الجبال تحيطها من كل الجهات عالية قوية تشكل سلسلة حامية لها. لم يكن الأفق ممدودا كما في الحديدة، لم يكن لها أفق، كانت العمارات والجبال تحجب الأفق أو أنه لا أفق في صنعاء.. لا أدري! ولكنها مدينة بدت لي قاسية كقسوة الجبال من حولها، وفي نفس الوقت كانت ملاذا تستقبل كل الوافدين من المدن الأخرى، يحلمون أحلام كبيرة لا تتسع لها مدنهم، فيأتون مسلمين لصنعاء القيادة لتحقيق أحلامهم، منهم من ينجح ومنهم من يفشل، ولكن الجميع يبقى في أحضان صنعاء الأم.

سرت باتجاه الشارع الرئيسي، شارع الستين، كما أخبرتني سهام وهي تعطيني تعليمات اليوم الأول للبحث عن عمل قبل أن تعود من تعز وتساعدني أكثر كما وعدتني، فهالني الازدحام وسرعة السيارات وكثرة الحافلات تلك الصغيرة بلونها الأبيض تجري بالطرقات كأنها فئران، وهالني برودة الجو وجفافه، كانت ملابسي تحت العباية صيفية لا تناسب هذا الجو، حتى حجابي خفيف لا يحمي من برودة الجو، ولكني تجاهلت كل هذا وتقدمت أكثر، صعدت أول حافلة أصادفها من تلك الفئران ولم أكن أعرف إلى أين؟ اتخذت مكاني بجانب امرأتين منقبتين، وأمامي رجلين أحدهما شاب يحمل بيديه كتبا، نظرا إليّ نظرة فاحصة ثم عادا إلى عالمهما الخاص. شعرت بكثير من

القلق والخوف والتوجس، نظرت إلى الفتاة بجانبي كانت تقرأ من مصحف صغير واكتشفت أن الدموع تغرق حافة النقاب تحت عينيها، حزنت من أجلها ولم أستطع سؤالها فقد توقفت الحافلة وانطلقت الفتاة تركض باتجاه مبنى كبيرا، كان مستشفى! سمعت السائق يقول "عَصِر، جولة عَصِر"، فنزلت ونزل معي الشاب صاحب الكتب، كان الشارع كما أخبرتني سهام على جوانبه الكثير من الجامعات، وقد أتمكن من إيجاد وظيفة صغيرة فيها، وفعلا اتبعت حركة الطلبة، جماعات، جماعات كانوا يسيرون وبأيديهم قليل من الدفاتر والكتب، شباب وفتيات البعض يمشي متمهلا والبعض يسرع الخطوات وأنا بين هؤلاء أسير ولا أنتمي لهم، ولكني أتبع خطاهم. كم كانوا مختلفين!! شعرت أن على وجوههم هالة، ربما هالة العلم، ربما هالة الأحلام... لا أدري؟ ولكني سألت نفسي لما لست مثلهم؟ معهم؟ طردت هذه الأفكار اليائسة وعدت أحث الخطى مثلهم.

ووصلت لأول جامعة، سلمت الملف الذي يحتوي على ثلاث أوراق هزيلة، السيرة الذاتية وشهادة المعهد وشهادة خبرة التدريس اليتيمة، سلمت الملف، وسألت إذا ما كان هناك وظيفة سكرتارية، واستلمت تلك العبارة التي قالت لي سهام أني سأسمعها في أغلب الأماكن "سوف نتواصل معك عند الاحتياج"، غادرت وواصلت طريقي وأنا أسأل وأبحث، مررت على مستشفى فدخلت أيضا ووضعت الملف لدى فتاة تبدو مشغولة، لا أدري إذا كانت ستسلم الملف إلى الجهة المعنية أم أنه سيبقى على سطح مكتبها إلى أن

يأخذ طريقه إلى سلة المهملات، طال اليوم ولا أمل يلوح، عيادات، محلات، مطاعم مررت على الجميع، وكان البعض لا يفهم لهجتي التهامية، وضحك أحد أصحاب المحلات وهو يعتذر لي قائلا "لن يفهم الزبون كلامكِ"، أنهكت وشعرت بقوتي تستنزف، فتحت حقيبتي وأخذت ما أحضرته معي وافترشت الأرض بجوار جدار، أكلت ودموعي تتساقط دون توقف، هل أخطأت بمغادرة مدينتي؟ وهل توقعت أني سأجد عملا في هذه المدينة الكبيرة؟ اقترب المغرب سريعا فعدت إلى المنزل وإلى أمي التي زادت من همي وهي تقول لي أن علينا مغادرة منزل خالتي عند عودة زوجها من رحلته، وكانت شكوى أمي محملة بالعتاب والشكوى وكأني المسؤولة عن عدم حصولي على عمل من أول يوم.

*****

استلقيت على الفراش الهزيل بجانب أمي بينما أخي يرقد على الأريكة التي يتجاوزها طولا، حاولت أن أنام، لكن شوارع صنعاء التي مررت بها كانت تمر بخاطري بإلحاح، والوجوه الكثيرة التي قابلتها تزدحم بمخيلتي وتحول نومي إلى سلسلة كوابيس، ولكني أخيرا وجدت ساعات قليلة من النوم قبل أن أنهض مرة أخرى للبحث عن عمل.

سلكت هذه المرة شارع الزبيري، أيضا وفقا لنصيحة سهام، صعدت إحدى الحافلات الصغيرة، اتخذت مكاني بجوار النافذة ولم أعر الركاب اهتماما وقد خف قلقي وبدأت أعتاد على هذه الحافلات ونظرات الفضول التي

أصادفها، ربما لأني من القلائل غير المنقبات! مررت على كثير من المحلات التجارية، عرضت عليهم ملفي الهزيل، يمكن لي أن أكون بائعة جيدة، لا أحد يعيرني اهتماما ووصل الأمر بالبعض إلى طردي وكأني أشحذ منهم، ولكني واصلت ومررت على مدارس تضج بطلابها، فتأخذ مني المعلمة المشغولة بإدخال الطلاب الصغار، الملف فقط حتى أذهب، وهكذا وجدت نفسي في ميدان التحرير، أفزعني الزحام وشعرت أن السيارات تسير في كل اتجاه وكيفما كان، شعرت أن الناس تزاحم السيارات وتقطع الطريق أيضا كيفما كان، وأيضا لم أجد بارقة أمل، لم يهتم أحد حتى بمنح الأمل.

*****

عادت سهام من سفرها، فانتقل سيف إلى حجرة الأولاد، كانت سهام فتاة جميلة، رقيقة، مرحة، تأخذ كل الأمور ببساطة، أحببت الجلوس معها والحديث إليها. أخبرتها بمشكلة اللهجة التي تبدو غريبة على البعض، فضحكت وقالت لي أن صنعاء تضم كل أبناء المدن اليمنية ولا نجد في الشارع لهجة واحدة فقط، فكم من أبناء تعز وما يحيطها من قرى يعيشون هنا ويتحدثون بلهجتهم دون مشكلة، مع اعتبار اللهجة الصنعانية هي الغالبة، ولا يمنع أن أحاول تخفيف حدة اللهجة وأتعلم قليلا من اللهجة الصنعانية، ثم نصحتني أن أزور شارع جمال كوجهة جديدة؛ لأنه يحتوي على عدد كبير من محلات الملابس الجاهزة ويعتبر من أهم الشوارع للتسوق، وربما أجد فرصة ما.

ذهبت في اليوم التالي مباشرة إلى شارع جمال، شارع طويل مزدحم بالدكاكين والمحلات، وكان شبه خالٍ في ذلك الوقت المبكر، قطعت شارع جمال كاملا أسال أغلب أصحاب الدكاكين، دون أن تظهر ملامح لأي فرصة، كانت تدب فيه الحركة بوتيرة متزايدة وزاد ضجيج باعة الرصيف، الذين يفترشون الرصيف ويبيعون أغراضا متنوعة، ينادون لجلب الزبائن ويتجادلون في الأسعار ويتبادلون الحديث والضحك مع كل الباعة والمارة من حولهم. كانت النساء بعباياتهن ونقابهن الأسود هن غالبية زوار شارع جمال، منهن من تسير مسرعة ومنهن من تصحب أولادها وتحاول جاهدة إبقائهم بجوارها. اقترحت عليّ سهام أن نذهب معا إلى مجمع الكميم، وكانت هذه أول مرة ترافقني فيها سهام، كان مجمع الكميم بناء كبيرا من طابقين، ويعتبر مركز تسوق مشهور، تعرفت لأول مرة على ما يسمى سلالم كهربائية، صعدت ممسكة بيد سهام، صعدنا إلى الطابق الأعلى ونحن واقفات على ذلك الدرج الصاعد إلى أعلى، أخفت سهام ضحكتها وهي تشاهد الخوف الذي اعتلى وجهي، لم أبالي بضحكتها، وحرصت على التشبث بها حتى وصلنا. على أي حال كانت النتيجة نفسها، لا توجد فرص عمل. في إحدى المحلات سمعتني امرأة وأنا أسأل البائع عن فرصة عمل، فتدخلت وقدمت لي نصيحة أن أذهب إلى شارع كلية الشرطة، حيث العديد من المحلات الخاصة بتجهيزات الأعراس وأغلبها صوالين التجميل النسائية، وقد أجد فرصة عمل

في إحداهن، وأخبرتني أن ابنة شقيقتها تعمل هناك ولكن لا تدري في أي محل بالضبط.

ذهبنا إلى هناك مباشرة، طرقنا صوالين التجميل، ومشاغل الخياطة، ومحلات فساتين الأعراس والتي راقت لسهام، وكانت تقف متأملة جمال الفساتين وتتمتم كما يبدو بدعاء أن يأتي اليوم الذي تشتري فيه أو تستأجر إحدى هذه الفساتين، حتى، المخابز طرقناها، اكتشفت أن بعض هذه الأماكن يعمل فيها أناس من دول أخرى، عراقيات وسوريات، ولأول مرة أقابل هذه الجنسيات التي يبدو أيضا أن صنعاء كانت ملاذا لهم، ولكن لِمَا تركوا أوطانهم؟

عندما حدثت سهام عن ملاحظتي واستفسرت عن هذه الجنسيات، حدثتني عن الحروب والنزاعات الدائرة في بعض الدول العربية خاصة العراق وسوريا والتي تقذف بالبشر خارج أوطانهم، وأن كثيرا منهم يتوقفون هنا في صنعاء كمحطة لالتقاط الأنفاس، ثم يغادرون في رحلة البحث عن الأفضل في أمريكا أو كندا أو دولة من دول أوروبا. ومنهم من يجعل من صنعاء وطنا يحتمي فيه من مخاوف أوروبا والعادات والتقاليد المختلفة عما نشأوا عليه أو لضعف المؤهلات والإمكانيات. كان حديث سهام جديد اعليّ، لم يستوعب عقلي لما على هؤلاء الكبار –كما أسمتهم سهام – ان يتقاتلوا حتى يضطر الناس إلى مغادرة أوطانهم والتشتت في بقاع العالم، يحملون ألم

وطن وجرح عميق، لما عليهم أن يدمروا أوطانهم حتى يحكمون أطلالا وبيوتا خاوية من البشر؟!

*****

واصلت البحث كل يوم دون تعب ودون يأس، وكلما عدت إلى المنزل بإخفاق جديد، يزيد خوف أمي وقلقها، حاولت أن أشرح لها أنه من المستحيل إيجاد عمل خلال أيام قليلة، ولكن مع اقتراب موعد عودة زوج خالتي كان خوفها يقترب حد الرعب، كان هاجسا حملتني مسؤوليته. لم أعد أدري هل يتوجب علينا العودة من حيث أتينا، وبالطبع هذا شيء لم يرق لأخي سيف الذي وجد في صنعاء عالما لم يحلم به في مدينتنا الهادئة.

وحدث ما كانت أمي تخشاه، لم أجد عملا بعد، وزوج خالتي عائد غدا، ولا يمكن لنا البقاء في البيت، على الرغم من محاولة خالتي لجعل الأمر طبيعي تقتضيه الضرورة. ولم يكن الأمر بهذه البساطة، فزوج خالتي يعمل صباحا ويأخذ مجلسه في البيت لتناول القات ونادرا ما يخرج كما علمنا.

ما بين إصرار خالتي ورفضنا البقاء، اقترحت خالتي أن ننتقل إلى غرفة مقابل باب السطح تستخدم من قبل سكان العمارة كمخزن ولكنه شبه مهجور، وافقنا دون تردد، وعليه أخذت خالتي موافقة أصحاب الشقتين في الطوابق السفلية، وبدأنا جميعا حتى أخوة سهام بعملية تنظيف ورمي الأغراض القديمة وفرشنا الغرفة بثلاثة أفرش، أعطتنا خالتي وإحدى الجارات، وكانت المشكلة

في عدم وجود حمام، وعلينا استخدام حمام بيت خالتي، وكذلك لا مجال للطبخ فيها.

جاء الليل وقد رتبنا الغرفة نوعا ما وتناولنا طعامنا من بيت خالتي واستقرينا ثلاثتنا ونحن نترقب الآتي، هل سنضطر للعودة؟ هل سنصمد؟ نظرت إلى باب السطح المهجور وتذكرت كيف تكون السطوح في مدينتي، يعيش فيها الناس، ويثون فيها الحياة، ويضع البعض سررا من القش للمقيل أو النوم، لكن هنا في جو صنعاء لا يوجد حضور قوي للسطح في حياة أهلها. شعرت بالحنين لمدينتي البسيطة ولجوها السخي، كان سخاؤه زائدا في ليالي الصيف الحارة.

كان التراب يغطي مقبض باب السطح مما يدل أنه مهجور، شعرت برغبة كبيرة في فتحه، لبست معطفا أعطتني إياه سهام ولبست حجابي، وعالجت المقبض ودخلت. كان السطح مشروع طابق، سوره مرتفع، وفيه فراغات تلك التي ستكون نوافذ لو اكتمل البناء، جلست عند إحداهن وراقبت الأضواء أمام العمارة من تلك البيوت والعمارات التي تكتظ بها الحارة، عالم من البشر يحلمون ويسعون ويقنعون بما يحصلون عليه، ويجاهدون في سعيهم ويتقبلون ما هو مكتوب لهم، ما هي أحلامهم يا ترى؟ هل يأملون بتحقيقها؟ أم يثقلهم ضعف الحال ويجعل أقصى أمانيهم الضروريات التي تأمن لهم البقاء في هذه الحياة؟ أرسلت نظري إلى البعيد حيث تنام أسفل الجبل مدن سكنية حديثة ومساكن جميلة، عالم مختلف، بالتأكيد أحلام مختلفة، أو متشابهة، هكذا

هي الحياة تعطي وتبخل، وبين هذا وذاك لا يتوقف البشر عن الأحلام. وأخيرا أرحت نظري نحو السماء يزينها القمر وحيدا دون نجوم، يشع هالة لما حوله ويقبع هناك يراقب البشر وقليل من يهتم به. شعرت بفتح باب السطح الذي تركته مواربا، دخلت أمي، جلست بجانبي صامتة، سألتها إذا ما اشتاقت للحديدة، لم ترد، أرسلتْ تنهيدة وقبل أن ترد ساد الظلام حولنا ولم يبق إلا ضوء القمر الذي زاد بهاء، فعرفت أن الكهرباء قد قُطعت، نهضت أمي وجذبتني من يدي وقالت:

- هيا نطلب شمعة من خالتك، وسيكتب الله لنا خيرا في هذه المدينة.

نهضنا وأنا أفكر بالشمعة وضروريات الحياة.

*****

جدت عملا بعد جهد كبير بالبحث، تسجيل أسماء المرضى في عيادة طبيب نساء وولادة، لا تبعد العيادة كثيرا عن منزلنا، وهذا ما جعلني أوافق لأن الراتب كان ضئيلا، لكني لن أضطر لدفع تكاليف للمواصلات، وللضرورة وافقت، حتى يكون لدي قليل من المال للمواصلات فأتمكن من البحث عن عمل أفضل يمكننا من الاستقلال في منزل خاص بشكل واسع. كان وقت العمل من الساعة الرابعة عصرا حتى التاسعة مساء، وقد أخبرني الطبيب بأنه عمل مؤقت حتى عودة الموظف الأساسي من إجازته. كان الراتب ألف ريال في

اليوم، احتفظ بنصفه وأعطي أمي النصف الآخر، لتساعد خالتي بما أننا نتناول طعامنا من منزلها.

وهكذا كان يبدأ يومي برحلات بحث عن عمل، أركب إحدى الحافلات البيضاء الصغيرة وأتوقف في شوارع محددة، نصحتني بها سهام أو إحدى نساء العيادة، أجوب الشوارع، وقد أجد نفسي تائهة في شوارع غريبة، أبحث عن تلك الحافلات وأسال عن حي السنينة وأعود، لم أعد أخشى الحافلات ولا نظرات المتطفلين ولم أعد أخشى حتى أن أضيع في تلك الشوارع، لقد عرفتها جيدا وعرفت كيف أعود من أي مكان لا أعرفه، وأظل هكذا حتى موعد دوامي في العيادة.

بينما يقضي أخي يومه في الخارج ساخطا غاضبا أغلب الأوقات ويدعي أنه يبحث عن عمل، ويرفض أن نبحث معا، ولا ينسى تذكيري بأن عليه الالتحاق بالجامعة! أما أمي فكانت تقوم بمساعدة خالتي في المنزل ولا تنسى هي أيضا أن تشتكي من هذه الظروف التي لا أعلم لما تحملني سببها.

كانت أمي تأخذ لنا من طعام بيت خالتي نتناوله عندما أعود وكانت سهام أو أحد أخوتها يحمل لنا صينية العشاء، احتج زوج خالتي على هذا الوضع وأكد ان لا مانع لديه بأن نأتي لتناول الطعام في بيتهم، ويمكن لنا النزول عندما ينهي طعامه إذا ما كنا نحرج من وجوده، ولكن كانت أمي مصرة على استمرارية الوضع كما هو حتى أجد عملا مناسبا يسمح لنا بالانتقال إلى شقة خاصة بنا.

كان عملي في العيادة مزدحما ما بين تسجيل أسماء المريضات وتنظيم الملفات الخاصة بذلك اليوم إذا كان للمريضة ملفا مسبقا. كانت أغلب النساء يلبسن النقاب، وقد عبرت إحداهن بأنه من الجميل أن تكون مسجلة الأسماء امرأة حتى يستطعن رفع النقاب وقت الانتظار، والذي كان يرهقهن بسبب متاعب الحمل. ويدور الحديث بينهن دون سابق معرفة، وبالطبع يتركز على مشاكل الحمل وأمراض النساء. ذات مرة سمعت إحداهن تشكي بأن الطبيب يحتج على حملها الخامس لأنها لا تستطيع أن تلد ولادة طبيعية، بل عن طريق عملية قيصرية، مما يتطلب راحة بين الحمل والولادة التالية لمدة تقارب الثلاث سنوات، وأن عليها الاكتفاء بهذا العدد من الأطفال. وقد بررت أنها لا تستطيع إخبار زوجها بذلك خشية أن يكون دافعا للزواج من أخرى أقدر منها على الحمل والولادة. كانت تحكي قصتها بصوت مرتفع، فشاركتها الأخريات آراءهن ما بين محتجة عليها لإهمالها لنفسها، وما بين ناصحة بألا تصغى للطبيب وتخسر زوجها! وكنت يوميا أسمع قصصا عن عدم القدرة على الإنجاب، وعن الحمل المبكر، حيث تكون الحامل في سن صغير لم يتهيأ جسمها للحمل بعد، إلى جانب تلك الأخبار الجميلة التي تجعل المريضة تخرج من غرفة الطبيب مبتهجة لتبلغ المنتظرات أنها حامل وكأنهن صديقات ربما شاركنها سابقا قلق ترقب الحمل. كانت العيادة عالما أعيش فيه متناسية عالمي وهمومي.

*****

مر ذلك الشهر الذي كنت أعمل فيه في العيادة دون أن أجد عملا بديلا، على الرغم من جولاتي في شوارع صنعاء، وذهاب أتعابي اليومية رسوما للمواصلات! وعاد الموظف من إجازته، سلم لي الطبيب راتبي اليومي، ألفين بدلا من الألف؛ مفسرا بأني كنت مجتهدة وجيدة مع المريضات، ويأمل أن تساعدني هذه الزيادة في تكثيف البحث عن عمل، كما أعطاني الموظف عنوان معهد قد أجد فيه فرصة عمل. تركت العيادة مباشرة وكانت الساعة تقترب من الخامسة مساء وذهبت إلى المعهد، اتضحت لي رغبتهم بموظف رجل لأنه معهد للشباب، فكرت بأخي، ولكن الوظيفة تتطلب إلماما باللغة الإنجليزية. تذكرت أن إحدى المريضات كانت قد أخبرتني عن مخبز قريب من بيتها تملكه امرأة وتحتاج لعاملة، يومها كنت قد أخذت العنوان منها، ذهبت، كان بعيدا في مدينة الأصبحي السكنيّة، كانت المرة الأولى التي أدخلها، وجدتها مزدحمة، كثير من المحلات وكثير من السيارات، وبشر هنا وهناك الكل له شأن يعنيه. كان المخبز يكمن في الشارع الرئيسي، وصلت وقابلت السيدة صاحبة المخبز، مكان جميل وأنيق وصاحبته كذلك. تحدثت معي بهدف التعارف وأخبرتني أن مشروعها جديد وأنها لا تستطيع إعطائي راتبا في الوقت الحالي، فقط ألف ريال في اليوم، على أن يكون دوامي من الساعة الربعة إلى السادسة مساء لتغلق بعدها المخبز. لم يكن ذلك ممكنا، ستكلفني المواصلات الكثير ولن يكون للألف معنى نهائيا.

عدت إلى البيت أو بمعنى أصح إلى الغرفة مع وقت المغرب، أعطيت لأمي الزيادة التي حصلت عليها من الطبيب واحتفظت بالباقي بغرض تكثيف البحث حسب نصيحة الطبيب. مر الأسبوع بعد الأسبوع ولا نتيجة تذكر. كانت سهام تخفف عني الأمر وتقص عليّ معاناتها بالبحث عن عمل، متناسية اختلاف ظروفنا ووقوعي بهذا الحرج واليأس.

*****

وخلال بحثي المستمر، لم أعد أقدم سيرتي الذاتية وكنت أكتفي بالسؤال عن توفر مجال للعمل أي عمل. وجدت عملا في أحد المطاعم، غسيل الأطباق، فقط ليومين في الأسبوع، الخميس والجمعة من الساعة الواحدة حتى السابعة مساء. كان الاحتياج كبيرا لازدحام المطعم في ذلك اليومين، استفسرت عن احتياجهم لنادل، فأكد صاحب المطعم عن احتياجهم وفي نفس تلك الفترة. وهكذا ذهبنا في يوم الجمعة أنا وأخي سيف، لم يرحب بالعمل ولم يعترض ولم أسلم من تذمره طوال طريقنا بالحافلة إلى المطعم الذي كان في شارع حدة، وهو الشارع الذي يمتد إلى مدينة حدة السكنية. كان الراتب أيضا يوميا مقداره ألف وخمسمائة عن كل يوم. كنت أعطي أمي الألف بينما كان أخي يحتفظ بالمبلغ كاملا دون أن تسأله أمي عن السبب ودون أن يبرر. كان العمل في المطبخ ينصب على غسل الأطباق دون توقف، وكنت أعمل مع ثلاث فتيات، منقبات، صامتات يبدو على عيونهن الهم، لم نتحدث مطلقا ولم نتعارف حيث لا مجال لذلك، حتى فترة الراحة والتي كانت لمدة

ربع ساعة لكل منا بأوقات متتالية فلم تسنح أي فرصة للحديث. عمل مرهق ومتعب، ولكني كنت اعتبره لمرحلة وستنقضي، وأحلم بيوم ما سأحصل على عمل مناسب. كنت أعود لحجرتنا متعبة، أستلقي على فراشي وأحاول أن أواسي نفسي وكان أخي يعود معي من المطعم، ليس إلى الغرفة، ولكن لأصدقائه واجتماعاتهم اليومية.

استمريت في البحث عن عمل آخر صباحا وواصلت عملي في المطعم في الأيام المحددة، مرت ثلاثة أسابيع قبل أن ينشب خلاف بين أخي وصاحب المطعم بعد تذمر أحد الزبائن من تأخر أخي بالرد عليه، وتقديمه للطلب بطريقة عصبية، لم يعتذر أخي ولم يقدر الموقف، بل حاجج على صحة موقفه، فأخذ نصيبه، الطرد، والغريب أني حصلت على نفس النصيب دون ذنب وخسرت العمل أيضا!

(3) وأخيرا...

نهضت صباح اليوم التالي كعادتي، وركبت الحافلة وأخذت معي ملفي هذه المرة، مصممة على إيجاد عمل مناسب أفضل من غسل الأطباق. جلست أراقب الطريق أمامي، تنبهت إلى مبنى كبير يبدو من الحركة أمامه أنه مؤسسة كبيرة، لم لا؟ إذا كانت كل الأماكن لم تقبلني فلم لا أجرب هذا المكان الكبير، فقررت أن أستجمع شجاعتي، ونزلت من الحافلة، ولكن عندما اقتربت من المبنى، كان ضخما ذا واجهات زجاجية، لونها أزرق فاتح، مكون من عدة طوابق، اتضح لي أنه بنكا، ردعني صوت الحارس بسؤاله بصوت حاد ونزق:

- إلى أين؟ من أنتِ؟

قلت له أني أبحث عن فرصة عمل، لكنه رفض دخولي وقال إن التوظيف يتم من خلال موقع البنك الإلكتروني، وأنه يتم إبلاغ الحراسة عند وجود مواعيد للمقابلات، وأنهى حديثه طالبا مني الابتعاد عن المدخل. وفعلا ابتعدت، ولكني وقفت قريبة من سور البنك وقد تجمعت الدموع في عيني، شعرت بنفسي ضعيفة، غريبة، صغيرة وسط مدينة كبيرة ومزدحمة، كيف سأشق طريقي في هذه المدينة، الكل مستعجل، البعض يتعامل بفضاضة، هل جازفت بنفسي وبأمي وأخي ورميتهم إلى هذه المدينة التي لا نعرفها ولم نعتد على إيقاع الحياة المتسارع فيها، هل سنجد لنا موضع قدم؟ حياة جديدة؟

لا يبدو ذلك ممكننا، وجدت نفسي مشتاقة لحر الحديدة وبحرها وناسها الطيبين، ولصراخ أخي جميل وبكاء أمي كل ليلة.

تناهى إلى سمعي صوت فتيات يقتربن ويتحدثن، كن بالعبايات الأنيقة وحقائب اليد الجميلة ونقابات تغطي وجوههن وتترك فقط عيونا متألقة مرحة، بدا واضحا توجههن إلى البنك، استجمعت ما تبقى من شجاعتي وقوتي وشعوري بضرورة عمل شيء ما وتجرأت أو أجبرت نفسي على ذلك واقتربت منهن سائلة:

- هل أنتن موظفات في هذا البنك؟ فأجابت إحداهن:
- نعم!

وهزت الباقيات رؤوسهن مؤيدات، فوجدت نفسي أقول:

- أنا غريبة هنا، أتيت من الحديدة، اسمي خولة، وأبحث عن عمل ولا أدري من أين أبدأ؟

تشاورن فيما بينهن همساً ومن ثم تجاوبن معي بشكل لطيف وسألتني إحداهن عن مؤهلاتي، فذكرت لها دبلوم السكرتارية الذي حصلت عليه ولم أنسَ ذكر معرفتي باللغة الإنجليزية. اقترحت إحداهن أن أدخل معهن إلى البنك وأقدم طلب عمل لعليّ أحصل على فرصة. لم أصدق نفسي هل ستتيسر أموري؟ هل سأقدم هنا ومصحوبة ببعض الموظفات اللاتي يظهرن كأنهن صديقات؟ دخلنا إلى البنك ولم يلحظ الحارس وجودي معهن، كان مبنى كبيرا جدا لدرجة أني خفت وخالجني الشك من أن اقبل في مكان

كهذا. تفرقن بمجرد دخولهن من باب البنك كلّ نحو إدارتها وسحبتني إحداهن وهي تقول:

- تعالي معي.

وصلت مكتبها خلعت النقاب فظهر وجها جميلا خاليا من المكياج إلا من كحل خفيف تحت عينيها، شابة قد تكون في العشرين من العمر أو أكثر قليلا. مدت يدها تسلم عليّ قائلة:

- لم نتعرف... أنا نوال سكرتارية رئيس البنك، والأخريات صديقاتي، ليلى وبشرى، سوف تتعرفي عليهن مستقبلا إن شاء الله، تفضلي بالجلوس حتى يأتي رئيس البنك ونرى إذا تمكنت من إدخالكِ لمقابلته، قد يحالفكِ الحظ أفضل من مقابلة مدير شؤون الموظفين، فهو عصبي ولا يفضل توظيف الفتيات خاصة اللاتي لاتزال خبرتهن بسيطة.

وافقتها الرأي وجلست على الكرسي أمام مكتبها بينما انشغلت هي بعملها على جهاز الحاسوب. مر على مكتبها بعض الموظفين والموظفات لإلقاء تحية الصباح وتبادل أحاديث سريعة، فشعرت أني بالتأكيد أحلم، فهل يمكن أن أصبح واحدة من هذه الكوكبة الرائعة؟ وكررت في سري "يا رب كن معي". انتظرت بصبر ودون ملل وأنا أتابع عمل نوال والأشخاص الذين يمرون ويحدثونها بأمور العمل تلك الأحاديث التي كنت أسمعها غامضة غريبة غير مفهومة لي، وكانت تُسَلّم لها كشوفات كثيرة ورسائل مطلوب منها تجهيزها

ومجلات مطلوب منها تسليمها لرئيس البنك. شارفت الساعة على العاشرة عندما وجدتُ نوال تنهض واقفة بسرعة وتقول:

- صباح الخير، تمام.

ومر من أمامنا شخص قد يكون قارب الخامسة والثلاثين، وسيما طويلا عريض البنية، وكان يتحدث بعصبية ويصرخ على من في الهاتف بكلام لم أميزه، وأشار لنوال بإشارة، جمعت على إثرها الرسائل وبعض الملفات ولحقت به إلى مكتبه. فزعتُ وحدثت نفسي هل يمكن أن أعمل مع شخص كهذا، لقد أرعبني وهو لا يحدثني، فكيف إذا كان هذا الصراخ موجها لي؟ صبرت وأجبرت نفسي على البقاء، مرت عشر دقائق قبل أن تعود نوال مبتسمة بإحراج قائلة:

- ليس اليوم يوم حظكِ يا خولة، فالدكتور مراد –رئيس البنك – منزعج جدا من بعض أمور العمل.

فقلت لها:

- لاحظت ذلك، أعتقد كان من الأفضل أن أقابل مدير شؤون الموظفين.

ونهضت وكلي رغبة بالخروج من المكتب على أي حال فمن المستحيل أن أجد عملا هنا.

قالت لي نوال:

- رئيس البنك خلوق وراق في تعامله، لكن من سوء حظكِ أنه متكدر اليوم، أقترح أن تأتي غدا ونرى إذا استطعتُ ترتيب موعد لك لمقابلته، ذلك أفضل من مدير شؤون الموظفين.

وافقتها الرأي، رغم أني أعرف استحالة دخول البنك مع مراقبة الحارس، ولكني لم أرغب في إحراجها أكثر، وقبل أن أترك المكتب دخلت سيدة جميلة وأنيقة بعبايتها السوداء عليها نقوش بالأحمر الداكن عند نهاية الأكمام وفي الحاشية، تلبس حجابا ملونا بألوان هادئة رقيقة، بادرت بتحية الصباح لنوال متوجهة نحو مكتب رئيس البنك، ولكنها أيضا لم تهملني فالتفتت إليّ وسألت نوال:

- من هذه؟ أختكِ؟

فردت نوال:

- لا، صديقتي.

كانت على وجهها ملامح الطيبة مما شكلت دافعا لي وشعرت بأنها فرصة وعليّ استغلالها، فقلت:

- نعم صديقتها وجئت اليوم لأقدم على طلب عمل.

وقفت وسألتني باهتمام:

- وما هي مؤهلاتكِ؟

أجبتها مناولة إياها الملف، أول نسخة أسلمها بطلب أحدهم ذلك:

- أتقن اللغة الإنجليزية وسبق لي تدريسها.

فردت لي الملف وقالت مبتسمة:

- ولكن هذا بنك، لا نحتاج لمدرسين.

تداركت غلطتي وصححت:

- عفوا لدي دبلوم سكرتارية، قصدت أني أتقن اللغة الإنجليزية وأستطيع التعامل مع الوثائق باللغة الإنجليزية.

استعادت الملف وتوجهت إلى مكتب رئيس البنك، جلستُ أمام نوال، ابتسمتْ وقالت:

- الدكتورة جليلة سيدة لطيفة جدا، وقد نسمع خبرا جيدا منها. ومؤخرا ترقت للعمل نائبة لرئيس البنك، لديها ماجستير من اليمن ودكتوراه في المحاسبة من أمريكا، وتعمل في البنك منذ سنوات.

انتظرت وكلي أمل، تارة أخاف وأتمنى الرحيل سريعا، وتارة أحلم أني أعمل هنا وأن لي صديقات من قبل حتى أن أبدأ العمل. وبعد قرابة الساعة خرجت الدكتورة جليلة وقالت لي مبتسمة وهي تسرع الخطى:

- تعالي غدا الساعة العاشرة سأجري معكِ مقابلة سريعة.

تركتنا، قفزت نوال أمامي مبتهجة كأننا صديقات فعلا منذ زمن، احتضنتني بسرور، وقالت:

- إذا كنتِ ستعملين مع الدكتورة جليلة فأنتِ فعلا محظوظة.

ذهلت، لم أصدق المفاجأة، شكرت نوال كثيرا وخرجت من البنك أهيم بأحلامي، ولا أدري هل ما حدث لي اليوم حقيقة أم حلما؟ ربما مازلت نائمة

وما هذا إلا حلم، أن يوفر الله عليّ مشقة تخيلتها لن تنتهي. لسعني البرد بمجرد خروجي فعدت إلى الواقع وركبت الحافلة عائدة وكانت الساعة تتجاوز الثانية عشرة، وسمعت الأذان يرفع لصلاة الظهر، تفاءلت به، وركزت على الطريق أمامي حتى لا تفوتني محطتي وأنا أعيش حلما أخاف ألا يتم.

*****

وصلت إلى منزل خالتي مبكرة، وليس وقت المغرب كما كنت أصل في الأيام الأخيرة، كانت أمي وخالتي تتبادلان أحاديثهما الخاصة وتشربان القشر (القهوة اليمنية المعروفة). جلست معهما وقصصت لهما ما حدث معي بالتفصيل، وعبرت لهما عن فرحتي بأن يسر لي الله أموري أخيرا. أثنتا علي وتمنتا لي التوفيق وقالت خالتي منبهرة:

- هل تعرفين كم تعبت سهام وهي تبحث عن عمل ولم توفق إلا بالعمل كمساعدة خياطة في مشغل قريب منا! لم تستطع الحصول على عمل في بنك أو شركة كبيرة، من المؤكد أن الراتب سيكون كبيرا!

نظرت إليّ أمي وقد خالجها الخوف من الحسد وقالت:

- الله أعلم إن كانت ستقبل في هذا العمل أم لا؟ فلننتظر إلى الغد حتى نعرف إذا كانت محظوظة أم لا.

وعندما انفردنا أنا وأمي في حجرتنا استعدادا للنوم، أخبرتني أمي أن هناك شقة صغيرة في العمارة التي في نفس الحي، والتي يملكها صاحب زوج

خالتي، فإذا وفقت بالعمل علينا الانتقال إليها والخلاص من هذه الغرفة الباردة.

عندما أشرقت الشمس، كنت قد سبقتها بالاستيقاظ وكنت أعدّ نفسي بحرص وأنا أتذكر نوال وصديقاتها وأناقتهن وجمال العبايات وحقائب اليد، لم أتناول سوى كوب من الشاي وهو الشيء الوحيد الذي كنا نعده في الغرفة بعد أن حصلنا على موقد كهربائي من إحدى الجارات، شعرت بالتوتر وفزعت لمجرد تخيل فشل المقابلة، فأعود لأمي خاوية اليدين، ونعود وندور في حلقة الخجل من البقاء في هذه الغرفة وضعف القدرة على الاستقلال بمنزل خاص بنا. نفضت هذه الهواجس من عقلي وخرجت أحاول أن آخذ شهيقا عميقا، علّني أتماسك وأستعد للمقابلة.

وقفت انتظر الحافلة في نفس المكان الذي وقفت فيه الأمس وقبله وأغلب أيامي، رن هاتفي، كانت أمي تصرخ لما ذهبت دون إيقاظها حتى تدعو لي وتقرأ ما تيسر من الآيات لرد الحسد عني، جاءت الحافلة فودعت أمي على الهاتف وركبت الحافلة وأنا أدعو الله أن يكون معي.

وعندما اقتربنا من مبنى البنك الكبير، طلبت من السائق التوقف وترجلت من الحافلة وأنا أشعر بمعدتي الخاوية تنقلب رأسا على عقب. كنت أحاول تهدئة نفسي وتذكر كلمات نوال عن الدكتورة جليلة وطيبتها، فقلت لنفسي أيًا كانت النتيجة فبالتأكيد ستكون مقابلة هادئة. اقتربت من الباب فرمقني

الحارس بنظرة كأنه يحاول أن يتذكرني، قلت له بصوت حاولت أن يكون طبيعيا فخرج متقطعا:

- خولة عمر، لدي مقابلة مع الدكتورة جليلة.

ركز نظراته عليّ وأمسك الهاتف وتحدث قليلا ثم قال لي تفضلي، وقبل أن أخطو أول خطوة، سألني بتعجب:

- كيف دخلتي بالأمس!

أجبته بخوف:

- قلت يارب!

وتركته ومشيت نحو باب البنك الداخلي. مشيت باتجاه مكتب نوال وأنا أتمتم بعض الآيات وأحاول جاهدة السيطرة على تقلب معدتي الخاوية.

رحبت بي نوال وطلبت مني الجلوس حتى تعطيني نصائح للمقابلة حسب كلامها، كانت سعيدة لأجلي؛ فنقلت لي التفاؤل والثقة، وتحدثنا كثيرا، فعرفت أنها درست دبلوم نظم معلومات وعملت في محل صيانة أجهزة حواسيب لمدة عام كامل قبل أن تتقدم لوظيفة هنا في إدارة شؤون الموظفين، فعملت مع مدير شؤون الموظفين، كان عصبيا جدا وخاصة معها فحدثت مشاحنة قررت على إثرها ترك العمل، ومن حسن حظها أن الشكوى التي رفعها مدير شؤون الموظفين عنها وصلت إلى رئيس البنك، فكان لها رد فعل مختلف عند رئيس البنك، قرر أن تعمل في مكتبه مؤقتا لحين الحصول على

سكرتارية متخصصة بدلا من السابقة التي تركت العمل عندما تزوجت، ثم ضحكت وقالت:

- ومؤقتا هذه استمرت سنتين إلى الآن والحمد لله.

أخذتني نوال إلى مكتب الدكتورة جليلة وانتظرنا خارج المكتب، وسألتُ نوال من كان يشغل الوظيفة سابقا؟ فقالت لي:

- لا أحد، أعمل أيضا بما تكلفني به الدكتورة، سيكون من الجميل إذا قررت الدكتورة أن يكون لديها سكرتارية خاصة بأعمالها.

تركتني نوال بعد أن أعطت الدكتورة جليلة خبر وجودي خارج المكتب وعادت لعملها. لم يطل انتظاري كثيرا، دخلت إثر مناداتها لي وجلست في الكرسي المقابل لمكتبها وأنا أدعو الله أن يوفقني وأحاول أن أظهر ارتياحي وثقتي كما نصحتني نوال. سألتني الدكتورة جليلة قليلا عن إمكانياتي التي كانت بسيطة أصلا، ولكنها سألتني أكثر عما أطمح إليه مستقبلا، وأين كنت أعمل سابقا، حدثتها بنبذة مختصرة عن حياتي وقد شعرتُ بارتياح وأنا أحدثها عن معاناتي في مدينتي وشحة الفرص، وعن معاناتي هنا وشحة الفرص أيضا، وأخبرتها أني أحلم بعمل يؤمن لي ولأمي ولأخي أساسيات الحياة ولا شيء آخر، تنبهت أني بدوت دون طموح وهذا قد يعد عيبا، فتداركت الأمر وقلت:

- أطمح الالتحاق بالجامعة عندما تستقر ظروفي، وأن أطور مهاراتي المطلوبة في هذه الوظيفة، وأن أكون دائما عند حسن ظنكِ إذا ما قررتِ توظيفي.

ابتسمت الدكتورة جليلة وقالت:

- تستطيعين البدء من الشهر القادم، أي بعد أسبوعين، وقبلها يمكنكِ الحضور في أي وقت حتى تقوم نوال بتدريبكِ على العمل الخاص بمكتبي، وستكونين تحت التجربة لمدة ثلاثة أشهر.

ثم أضافت وهي تمد لي يدها منهية المقابلة:

- يمكنكِ الآن الخروج.

خرجت متوجهة إلى مكتب نوال وأنا غير مصدقة، أحاول أن أتذكر حوارنا في المقابلة، فيتداخل الحوار والأسئلة، دخلت مكتب نوال ساهية فنظرتْ إليّ متوقعة عدم نجاحي في المقابلة:

- ماذا حدث؟ هل اعتذرت لكِ الدكتورة؟ مستحيل سوف أحدثها بمنحكِ فرصة ولو لفترة لتتعرف على قدراتكِ ومهاراتكِ.

تنبهت لحالي وهمست قائلة:

- لقد قُبلت يا نوال!

ووجدت نفسي أبكي، حضنتني نوال فرحا وهنأتني فمسحت دموعي سريعا وأنا أشعر بالخجل، فأنا غريبة هنا على الأقل حتى الآن، وهكذا اتفقت مع نوال على مواعيد محددة لزيارتها والتدرب على العمل وخرجت من البنك أنشد الخلوة مع نفسي.

سرت في الشارع سعيدة، خفيفة أكاد لا ألمس الأرض، لم أكن أعلم أن الهموم تثقل الإنسان إلى هذه الدرجة. أخرجت شطيرة كنت قد أحضرتها من

عشاء أمس من بيت خالتي ومشيت آكل وأفكر وأخطط، لم أسأل عن الراتب أو أي امتيازات، شعرتُ بأن هذه الوظيفة جاءت لي هدية غير متوقعة، فلا يجب أن أسأل عنها أو عن أي شيء يتعلق بها. مشيت وقتا طويلا، تارة أحمد الله على هذا الحظ، وتارة أخاف الفشل، وتارة أتخيل وجه أمي وهي سعيدة بنجاحي أخيرا بالحصول على عمل في هذه المدينة الضخمة.

بدت لي صورة الدكتورة جليلة وابتسامتها الحنونة كأنها ملاك أرسله الله ليمد لي يد العون، تنبهت أني قد مشيت كثيرا ولم أعد أعرف كيف أعود إلى المنزل، ابتسمت فأنا لم أعد غريبة، سألت عن الحافلات المتجهة لحارة السنينة فدلني البعض وأشرت للحافلة، دخلت وأنا أشعر بالخوف والبهجة وكثير من المشاعر المختلطة، لقد حصلت على عمل رسمي، هل هذه حقيقة أم أني أحلم!!

(4) صنعاء القديمة

مرت الأيام التالية هادئة، انتقلنا إلى الشقة التي أخبرتني عنها أمي، كانت شقة صغيرة، لكنها بدت كأنها قصر مقارنة بالحجرة التي عشنا فيها أكثر من شهرين، وأثثناها من محل الأثاث المستخدم أثاثا بسيطا بقرض من زوج خالتي، على أن يسترد المبلغ من راتبي القادم. كانت الشقة مكونة من غرفتين صغيرتين وصالة ومطبخ وحمام، طلبنا من صاحب البيت إنشاء حواجز على جزء من الصالة لتتحول إلى غرفة ثالثة، فوافق على ذلك على أن نساهم في تكاليفها، ووافق أن ندفع المبلغ لاحقا. وبهذا حصل كل منا على غرفة، وكان من نصيب سيف تلك الحجرة الصغيرة في الصالة.

واصلت زياراتي للبنك وتعلمت من نوال الكثير من المهام المطلوبة في هذه الوظيفة، وتعرفت على الموظفات الأخريات منهن الأستاذة سامية، وعرفت أنها نائبة مدير إدارة الدراسات والبحوث وأنها خريجة نظم المعلومات وتكمل حاليا دراسة الماجستير، كما تعرفت على بعض الزميلات والزملاء، وكان جو العمل يبدو جميلا وهادئا، وعرفتني نوال على زميلتيها اللتين كانتا معها في ذلك اليوم، ليلى في الخامسة والعشرين، مخطوبة وستتزوج قريبا، وبشرى قد تقارب الخامسة والثلاثين، متزوجة ولديها ثلاثة أطفال.

كان كل شيء جديدا بالنسبة لي، مبهجا ورائعا، بعد المعاناة والتعب واليأس، كان العمل في بيئة مختلطة تجربة جديدة بالنسبة لي، وكذلك التعرف على نساء في مراكز عالية ودراسات متقدمة، كل هذا أدخلني في بيئة تحفيزية

أضاءت جوانب نفسي المعتمة بفعل الخوف من المستقبل وتحمل مسؤولية أسرتي منذ وقت مبكر.

جاءت سهام إلى شقتنا الجديدة تبارك لنا وتساعدنا في ترتيب الشقة الصغيرة، سهرت معنا إلى وقت متأخر فاقترحت عليها أمي البقاء والمبيت عندنا، وهذا ما راق لها. سهرنا أنا وهي في حجرتي – لأول مرة أمتلك حجرة خاصة بي – وفتحت لي قلبها لأول مرة وحدثتني عن أحلامها أو بمعنى أدق حلمها بكل صراحة وبوضوح وهو أن تلتقي بأحد الأغنياء ويتقدم للزواج منها فتنتقل إلى حياة سعيدة خالية من المشاكل –كما تتوقع–، وحدثتها عن أحلامي بأن أوفر لأسرتي أساسيات الحياة الكريمة وأساعد أخي على إكمال دراسته الجامعية. ومن ثم همست لي سهام بأنها تلتقي بأحد الشباب وأنها تحبه وأنه يبادلها الحب أيضا، ولكنه ليس غنيا ولن يستطيع أن يحقق أحلامها، وإن كان يعدها بأنه سيجتهد ويحصل على فرصة ليصبح أحد الأغنياء فقط من أجلها.

لم يكن للحب أي معنى في حياتي ولا يشكل الشباب محور اهتمام فيها، كانت نظرة راحة في عيني أمي هي الحب، ونجاح أخي هو محور اهتمامي، ولم يكن يزعجني وضعي هذا ولم أكن أشعر أني مظلومة في هذه الحياة، كنت أثمن وجود أسرتي معي وأقدر ما وصلت له خلال هذه الفترة من وجودي في هذه المدينة المزدحمة.

مرت الأيام التالية وأنا منتظرة بدء العمل، أياما هادئة، أذهب إلى البنك لمدة ساعتين وأعود لشقتنا، وبعدها كنت أقضيها مع سهام في شقتنا غالبا، وذات يوم حدثتها عن استغرابي أني بكل هذا الطواف في شوارع صنعاء لم أجد تلك البيوت التقليدية التاريخية التي يتحدث الكل عن جمالها. ضحكت سهام وطلبت مني أن أستعد للخروج دون مناقشة، وهذا ما قمنا به بعد أن لبستْ النقاب وأعطتني واحدا، ركبنا الحافلة وسارت بنا في اتجاه لم أعره اهتماما، لأول مرة أركب الحافلة دون أن أكون متيقظة ومتحفزة لكي أتنبه للوصول إلى المكان الذي أقصده، لأول مرة لا أحاول قراءة أسماء المحلات لمعرفة إذا ما تنفع لتقديم طلب عمل فيها، لأول مرة أكون مسترخية على مقعدي ولا أهتم إلى أين نذهب؟ ومتى نتوقف؟ تركت ذلك لسهام مستمتعة بالنظر والتأمل فقط. سارت الحافلة طريقا طويلا قبل أن يظهر على جانب الطريق سور وتظهر رؤوس بيوت من خلفه، وكانت هي تلك البيوت، وهنا قالت لي سهام:

- أهلا وسهلا بكِ في صنعاء القديمة!

ترجلنا من الحافلة وسرنا نحو باب صنعاء القديمة، وكأننا دخلنا منه إلى عصر آخر وزمن غابر. تجولنا في حارات شوارعها ضيقة مرصوصة بالحجر الصلد وعلى جانبيه بيوت شبه متلاصقة شاهقة مزخرفة جدرانها ونوافذها ملبسة بالقمريات الملونة. شعرت أني تركت عصرنا وتوغلت في عبق الماضي السحيق وتأملت تلك الدير العالية وتخيلت كم من أقوام عاشوا وماتوا داخلها،

وكم من أحداث حدثت هنا ورسمت التاريخ والحاضر. لفنا الصمت فترة طويلة ونحن نتأمل المكان وكأننا في حضرة الأجداد وفي محراب التاريخ. وكسرتُ الصمت:

- لم أتوقع وجود مكان مثل هذا في قلب صنعاء!!

فردت عليّ سهام:

- إنها صنعاء القديمة، بكل جمالها ورهبتها، ولكن ما يزال بعض من هذه البيوت موجودة بالداخل أيضا، مثل بيوت في شارع 26 سبتمبر وغيره من الشوارع التي احتفظت بهذا الطابع من البناء مع بعض الحداثة.

مرت بنا بعض النسوة مرتديات الستارة الصنعانية المربعة والمزخرفة والمفعمة بالألوان المتداخلة والجذابة، على وجوههن غطاء أسود عليه بقع دائرية باللون الأحمر والأبيض، وإحداهن كانت ملقيه هذا الغطاء إلى خلف رأسها تاركة وجهها مكشوفا، استغربت لما تركنا هذا الزي الجميل وارتدينا هذه العبايات والنقابات السوداء.

ذهبنا إلى برج السلام، صعدنا إلى المقهى على سطحه، جلسنا نحتسي القهوة، ونتأمل صنعاء من مكاننا في إطلاله جميلة، وحولنا قليل من الطاولات، شغلت إحداهن مجموعة فتيات يلتقطن الكثير من الصور لمنظر البيوت الأثرية المتشابهة تتخللها الأزقة تمنحها ملامح قنوات المياه في البندقية، وتشمخ المآذن وسط الزحام المعماري، دخلنا الطيرمانة –مجلس

عربي كبير في أعلى البرج يطل على المدينة أسفله- شبابيكه شاسعة تملأ الحيطان، ظهرت من هنا المعالم بصورة أوضح، كان جبل نُقُم على يسارنا كحارس لصنعاء عموما، كانت سهام سعيدة فهي منذ زمن لم تأت إلى هنا، تشغلنا الحياة وتمر دون أن نبهج أنفسنا بلحظات نقضيها مثل اليوم مستقطعة من روتين الأيام. كانت رحلة جميلة وأول مشوار أقوم به في صنعاء دون أن يكون الهدف البحث عن عمل وكنت فعلا بحاجة لهذه الرحلة والاستجمام التي أتت دون تخطيط.

(5) عالمي الجديد

انتهت فترة الأسبوعين وبدأ الشهر الجديد، تاريخ بدء عملي، لم أقابل الدكتورة جليلة أثناء فترة التدريب، ولم أحصل على معلومات إضافية عنها، إلا أنها متزوجة ولديها ولد وابنتان. كما تعرفت على الأستاذة سامية أكثر وعرفت أنها تعيش مع أسرتها المكونة من أمها –أبيها متوفٍ – وأخوتها الثلاثة وعرفت من نوال أنهم يضيقون عليها الخناق كأنها فتاة قاصر صغيرة، فاقتصرت حياتها على العمل فقط إلى جانب الذهاب إلى الجامعة لدراسة الماجستير.

تم وضع مكتب صغير لي في الصالة المقابلة لمكتب الدكتورة جليلة، وطلبت الدكتورة عمل حاجز يعطي للمكتب مساحة خاصة عن الصالة الواسعة، كنت من خلال جلوسي بالمكتب أتابع حركة الموظفين وأستطيع مشاهدة مكتب نوال من بعيد، كما كان بإمكاني السيطرة على الداخلين لمكتب الدكتورة جليلة.

وهكذا وجدت نفسي أعمل في مكان لم أتوقع أني سأحصل على عمل فيه، وجدت نفسي أجلس على مكتب ووجدت نفسي مسؤولة عن أعمال الدكتورة جليلة، وحمدت الله أنه وهب لي هذه الفرصة بعد طول معاناة والتي كان يمكن أن تطول أو تنتهي بوظيفة بسيطة بأحد المحلات إذا كنت محظوظة.

كان العمل في مكتب الدكتورة يمر بفترات، اجتماعات ومحاضر اجتماعات يتوجب عليّ كتابتها على جهاز الحاسوب باللغة العربية وأحيانا باللغة

الإنجليزية، وأحيانا يقتصر العمل على متابعة الإيميلات وتنسيق مواعيد الدكتورة، ولكني كنت أتعلم بسرعة ويتطور أدائي يوما بعد يوم بمساعدة نوال بالدرجة الأولى وكذلك الكل كان متعاونا.

مر الشهر واستلمت أول راتب، سبعين ألفا، فرحت به كثيرا، لم أصدق نفسي! تأملت المبلغ وتذكرت الألف التي كنت أحصل عليها مع تلك الأعمال الشاقة. سددت التزاماتي من إيجار وقرض زوج خالتي وقيمة الغرفة التي وافق عليها صاحب المنزل والذي اشترط أن نساهم في التكاليف، وبقي لدي القليل من الراتب، أصرت سهام عليّ أن أمنح مظهري اهتماما ونصيبا من الراتب، ذهبنا معا واشتريت عباية جديدة لأول مرة منذ زمن لا أذكره، وثلاث حجابات جميلة مناسبة للعمل، كما أصرت على شراء حقيبة يد أيضا، أقرضتني قيمتها إلى الشهر القادم، فظهرت بمظهر جديد أدخل الثقة والسعادة لقلبي.

*****

مع استلامي لأول راتب، طلب مني أخي سيف دعمه للدراسة في الجامعة، وسيعتبر ذلك قرضا لحين أن يتخرج ويعمل. كانت دراسة سيف من أكبر هموم أمي وضمن اهتمامي على أي حال. سجّل في جامعة خاصة، يمكن للطالب تقسيط الرسوم بشكل ميسر، ولكن بالنسبة لي كانت عبئا جديدا أخذ من راتبي الكثير.

مرت الأيام والأسابيع وبدأت أعتاد على العمل، وأفهم مهامي جيدا، وكنت أحيانا أحضر الاجتماعات إذا كانت الدكتورة تترأسه، فأشارك كمقرر للاجتماع، ولكني لم أكن أحضر اجتماعات رئيس البنك. والجميل في طبيعة عمل هذه الاجتماعات، أنه يتم صرف للمشاركين مبلغا كل حسب وظيفته، بالنسبة لي كان المبلغ مرضيا ويعينني على تلبية مسؤولياتي المتزايدة.

وذات يوم في أحد الاجتماعات، وبعد انتهاء الاجتماع وخروج المشاركون، انشغلت في تبيض المسودة لمحضر الاجتماع بينما بقيت الدكتورة تطالع شيئا ما على هاتفها. وكأنها تنبهت لوجودي، سمعتها تسأل:

- هل تخططين في الحصول على درجة البكالوريوس؟

نظرتُ إليها، ووجدتها تنظر إليّ، فعرفت أن السؤال موجها لي، فأجبت:

- يجب الآن أن ينهي أخي دراسة البكالوريوس، لم يستطع تجاوز امتحان القبول في جامعة صنعاء فاضطررت لتسجيله في إحدى الجامعات الخاصة، يرغب بدراسة تكنولوجيا المعلومات، ورسوم التخصص مرتفعة، ولكن الفرص في سوق العمل جيدة.

نظرت إليّ بتعجب:

- وهل يعمل أخوكِ؟!
- لا! سيتفرغ للدراسة؛ لأنها تتطلب الالتزام بالحضور.
- وماذا عنكِ! هل ترغبين بدراسة البكالوريوس؟!
- حاليا.. لا! ماذا سأستفيد؟!

- ماذا ستستفيدين!! ألا تحلمين بتحسين مستقبلكِ! إن المستقبل مفتوح لمن يتقدم علميا، فهل ترغبين بمستقبل زاهر؟

سكتُ خجلة من إظهار نفسي بلا أي طموح:

- ربما.. سأفكر بذلك عندما ينهي أخي دراسته.

سكتت ولم تعلق بشيء، ولكني شعرت من نظراتها أنها تود قول شيء ما، تنهدتْ وعادت تتابع ما كانت تطالعه على هاتفها، ومن ثم تركت القاعة وهي تقول:

- يمكنكِ التحدث معي إذا احتجتِ المساعدة.

لم أفهم ما المساعدة التي يمكن أن تقدمها، ولم أسالها، أنهيت عملي وعدت إلى مكتبي الذي بدأت أحبه وأشعر أنه عالمي الجديد.

كان التحاق أخي بالجامعة واختياره مجال تكنولوجيا المعلومات عبئا جديدا عليّ، لم أخبره بذلك ولم أحدث حتى أمي التي كانت مسرورة بإمكانية أن يدرس أخي الجامعة. ولكن سهام ابنة خالتيُ صدمت، وأخبرتني بكل وضوح أن أخي أنانيا باختياره تخصصا عالي التكاليف، وبعدم محاولته إيجاد أي عمل لدعم نفسه، واعتماده عليّ فقط! لم أعلق على ملاحظة سهام لأني شعرت بأن ما قالته هو ما دار بخلد الدكتورة عندما حدثتها عن دراسة أخي. ومع الأسف لم يقدّر أخي هذه الفرصة التي أتيحت له، بدأ يطلب نقودا لمستلزمات الدراسة بشكل مُبالغ، لم أكن ألبي طلبه دائما وكان هذا سببا لتذمره وغضبه. وتدخلت سهام مرة أخرى لتبلغني أن أخي يتناول القات يوميا

مع أصدقائه من الحي بما فيهم شقيقها الذي يقارب أخي عمرا. لم أعرف كيف أتصرف! هل أتحدث معه بما علمت أم أبلغ أمي لتتصرف، ولكني لا أريدها أن تحزن، فقررت أن اتحدث معه.

عاد أخي من الخارج في وقت متأخر، حاملا بعض الكتب التي تشير إلى أنه كان يدرس، جلس في صالة الجلوس وأخذ يأكل مما اشتراه كما يبدو من الخارج وهو ما لم نكن معتادين عليه، واجهته بما عرفت، وبدلا من تفهمه لموقفي وحرصي عليه وعلى نقودنا القليلة، التي يذهب أغلبها لإيجار هذه الشقة، نهض بعصبية وبدأ يصرخ مدعيا أني أمنّ عليه، وأنه كما يفترض "رجل البيت" ويجب أن يُحترم، وأنني لا أعتبره كذلك!! نهضت أمي من نومها بسبب صراخه، وقبل أن أشرح لها ما حدث كان أخي يخرج من المنزل ضاربا الباب وراءه تاركا كلتينا في ذهول.

كانت هذه الحادثة أول حادثة تعكر صفو سلامي بعد أن حصلت على عمل في هذه المدينة، لم أتأثر كثير بعدم اجتياز أخي للقبول في الجامعة الحكومية والتي كانت ستوفر عليّ الكثير من المال، لم أدقق لاختيار أخي تخصصا مكلفا، ولكني تأثرت بصراخه وعدم تفهمه لما نعيشه في مدينة غريبة ليس لدينا فيها سند يمكن أن نعتمد عليه لو خذلتنا الظروف، تأثرت عندما قال إني أخذت الحجرة الأكبر بينما يجب أن تكون من حقه بصفته "رجل البيت"! تأثرت من قوله إنه يعاني من عدم قدرته على شراء كل ما يريد!

لم أعرف أين يكمن الخطأ! ورغم أن أمي لم تعلق وعادت إلى حجرتها، لكنها بدت الصباح وكأنها لا ترغب بالحديث معي.

*****

ذهبت إلى عملي وأنا أشعر بقلبي مهموم جدا وظهر ذلك على ملامح وجهي دون أن أقصد.

سألتني الدكتورة مباشرة بعد تحية الصباح:

- هل أنتِ متعبة يا خولة؟
- لا! فقط مشغولة البال قليلا، سأحضر لكِ ملفات اليوم حالا.

دخلت الدكتورة مكتبها وهي تنظر إليّ بابتسامة حنونة، ولحقت بها مع الملفات وأنا أحاول رسم ابتسامة على وجهي، فلا ذنب لها حتى أكدر يومها بمشاكلي الخاصة. مر اليوم ثقيلا وشعرت بنظرات الدكتورة تركز عليَ أكثر كأنها تشجعني على البوح بما يشغلني، ولكني صمت.

انتهي اليوم وكان تفكيري يتعبني، لا أعرف ما هو الصح وما هو الخطأ؟ عدت إلى المنزل وقبل أن أفتح الباب كانت أمي تفتح لي الباب وهي تهمس لي بكلام لم أفهمه وجرتني إلى حجرة أخي فاكتشفت أنها أصبحت حجرتي، قالت هامسة:

- إنه يحتاج الحجرة الأكبر حتى لا يضطر للذهاب إلى منازل أصدقائه للدراسة، بينما أنتِ لا تحتاجين إلا للسرير والدولاب الصغير (كان دولابا بلاستيكيا).

ابتسمت وأضافت:

- إنه يحتاج إلى الاهتمام وعلينا مساعدته.

سكتُ ودخلت الحجرة الصغيرة، والتي تعتبر في الواقع جزءا من الصالة، وتعتبر فقط علبة للنوم. وضعت رأسي على المخدة ورحت في نوم عميق لا أعرف من أين أتى؟ ولكني استيقظت وقت آذان المغرب. ووجدت على الأرض طبق الأكل، كما يبدو أن أمي أحضرته لي عندما لم أقم لتناول الطعام معهما، جلست على الأرض وأكلت من الأكل وقد أصبح بادرا، ولكني لم أهتم فقد كنت حزينة. كنت أشعر بالفرح بأن أصبحت لي حجرة خاصة بي ويمكن لي استقبال صديقاتي فيها –سهام– بالدرجة الأساسية، وعلى الرغم من سطحية الأمر، لا أدري لم أنا حزينة هكذا؟!

ما مفهوم "رجل البيت"؟! أنا من تصرف على البيت، على الرغم من أنني امرأة، إذا يجب أن تغيّر هذه العبارة وتكون "رب البيت"، عندها يمكن أن يكون رجلا أو امرأة، وفي هذه الحالة، يجب أن يكون لرب البيت حقوقا كاملة، فلما أحرم من حجرتي وأنا "رب البيت"؟!

*****

مرت الأيام والشهور وتحفظت في علاقتي بسهام نوعا ما، لأنها كانت دائمة الدخول في علاقات وتخرج منها ببساطة بعد عدة لقاءات عبر الواتس–آب والماسنجر، ولا أعرف من أين تتعرف عليهم؟ لكنها كانت تحاول كما قالت لي إيجاد الشخص الذي يتزوجها فيصبح لديها بيتها الخاص وتتوقف عن

العمل، وكانت هذه هي الطرق الحديثة للتعارف والمتاحة على أي حال. وفي نفس الوقت أصبحت نوال صديقتي المفضلة، نتبادل الأحاديث المختلفة ونضحك كثيرا، فقد كانت ذا شخصية مرحة ولا شيء يعكر مزاجها.

ذات يوم جاءت الدكتورة جليلة وطلبت مني استدعاء الأستاذة سامية للاجتماع، أخبرت الأستاذة سامية، وجاءت في الوقت المحدد وطلبت مني الدكتورة أن أكون مقررا للاجتماع، عليّ كتابة المواضيع والقرارات فقط، وليس بكتابة كل الحديث الذي سيدور في الاجتماع. بدأت الدكتورة الاجتماع قائلة للأستاذة سامية:

- لدينا بحث عن استخدام تقنيات معينة لدعم اتخاذ القرارات في البنك وأفكر أن نقوم بهذا البحث معا حتى نقدم للإدارة العليا المقترح بشكل كامل، ويمكن لنا المشاركة وتقديمه في مؤتمر في الأردن بعد ثلاثة أشهر حول استخدام التقنيات في رفع مستوى جودة القرارات ما رأيكِ؟

نظرتْ إليها كأنها تتساءل عن إمكانية ذلك، سكتت الأستاذة سامية ثم قالت:

- كما تعلمين دكتورة يسعدني المشاركة في البحث، وبخصوص السفر أتمنى ذلك، ولكن ما يزال الوضع كما هو لا جديد، لن يسمح أخوتي لي بالسفر كما تعلمين!

ردت الدكتورة قائلة:

- أعلم، ولكن هذه المرة لن تكوني بمفردكِ، سنكون معا طوال الرحلة، وسوف تستغرق فقط خمسة أيام.

قالت سامية:

- سوف أرى، وأنا أكيدة من ردهم، ولذا أقترح إشراك الأستاذ سعيد في هذا البحث ليسافر معكِ.

تم الاجتماع ونصّ على القيام بهذا البحث والمشاركة في المؤتمر وانتهى على أن يتم الاجتماع ثانية نهاية الأسبوع لتحديد المشاركين في المؤتمر.

خرجت لطباعة المحضر وبقيت الدكتورة مع الأستاذة سامية، أنهيت الطباعة وعدت للمكتب لتوقيع المحاضر، ومازالتا تتناقشان في موضوع البحث، استمعت لهما وشعرت برغبة كبيرة لفهم الحديث الذي يدور، ما معنى بحث وما معنى مؤتمر وكيف هي الأردن؟

في اليوم التالي ذهبت في ساعة الراحة إلى مكتب الأستاذة سامية وسألتها عما إذا وافق أخوتها، فقالت لي:

- بالطبع لم يوافقوا ولا أتوقع منهم ذلك! ولن يدركوا أهمية هذا المؤتمر بالنسبة لي.

فسألتها بخجل:

- وهل يشكل حضوركِ إضافة مهمة لكِ؟!

ابتسمت وقالت:

- يعتمد ذلك على ما تريدين عمله في حياتكِ، إن العمل في البنك وفي إدارة البحوث والدراسات يستلزم قيامكِ بعمل أبحاث والمشاركة في المؤتمرات التي يتم دعوة البنك لحضورها، وهذا يضفي على عملكِ جدية وتنوع خبرة، ولا تنسي أن للسفر سبع فوائد.

سكتت كأنها تسترجع محادثتها مع أخوتها وقالت بصوت خافت وبرنة عصبية:

- للأسف أخوتي يعتقدون أن موافقتهم لي على العمل هنا فضل تفضلوا به عليّ.

عدت إلى مكتبي وأنا أفكر في كل شيء جديد يمر في حياتي وشعرت أني أتمنى أن أتقدم في حياتي العملية ولا يقتصر عملي على السكرتارية، ومر بخيالي أخوتي ووجدت نفسي أتساءل أيهم أفضل أخوتي الذين تركوني أتحمل مسؤولية أمي وأخي دون عون منهم أم أخوتها الذين يفرضون عليها قيودا بهدف حمايتها على الأقل من وجهة نظرهم؟ لم أجد الجواب.

*****

شغلت تفكيري كثيرا فكرة تطوير نفسي، وكان السؤال الذي يدور في عقلي كيف يمكن ذلك؟ والغريب كأن الدكتورة قرأت أفكاري أو شعرت بما يدور في بالي، نادتني:

- لقد وجدت لكِ منحة مقدمة للبنك من إحدى الجامعات، ويمكنكِ دراسة أحد التخصصات المقدمة منها، إما إدارة أعمال أو نظم معلومات.

اندهشت بعرضها عليّ اليوم بالذات هذا العرض، وهو ما كنت أفكر فيه، فرحت وسألتها:

- أيهما أفضل؟

ردت:

- يعتمد على ما تفضلين دراسته، كلا التخصصين جيدان.

سألتها بحياء وأنا أبعد نظري عنها:

- أريد أن أكون باحثة مثلك ومثل الأستاذة سامية.

ضحكت الدكتورة وقالت لي:

- يمكنكِ أن تكوني باحثة في أي مجال أيا كان تخصصكِ، لديكِ جهاز حاسوب وإنترنت، سأمنحكِ ساعة تبحثين فيها عن التخصصين، وعن معنى البحث العلمي، وسأطلع على نتيجة بحثكِ.

فرحت وخرجت راكضة إلى نوال وترجيتها أن تأتي إلى مكتبي لكي تعلمني كيفية البحث في الإنترنت. وهكذا تعلمت لأول مرة ما معنى إنترنت وكيف يتم البحث فيه وقدمت للدكتورة نهاية اليوم رغبتي بدراسة إدارة الأعمال فقد

وجدت أنه المجال الأقرب لعملي، كما يمكنني التسجيل فيه بنظام الانتساب.

عدت إلى المنزل وأنا أفكر كيف يمكن لي شراء حاسوب مستخدم بسعر جيد حتى أكتسب خبرة في التعامل المتقدم معه، وكانت المصادفة اهتمام أخي الذي كان أيضا يود شراء حاسوب فوجد أنها فرصة مناسبة لشراء الحاسوب لكلينا، وأخبرني أن أحد أصدقائه يمكن أن يوفر لنا جهازا مناسبا مستخدما وبسعر معقول وهكذا امتلكنا جهاز حاسوب في منزلنا استقر على الطاولة في الصالة.

استمر عمل الدكتورة مع الأستاذة سامية والأستاذ سعيد مدير إدارة الدراسات والبحوث في البحث على أن تسافر الدكتورة وسعيد فقط لحضور المؤتمر. أصبح جهاز الحاسوب في مكتبي وجهاز الحاسوب في المنزل ملجأ لي لمعرفة أي معلومة؛ ما معنى أبحاث؟ ما هي المؤتمرات؟ وحتى الأردن تعرفت عليها من الإنترنت، توسعت آفاق تفكيري وعشت حلما لم يتبلور بعد.

*****

مع بداية العام الدراسي ذهبت إلى الجامعة لإكمال التسجيل، وتذكرت قوافل الشباب وهم سائرون نحو جامعاتهم وأنا سائرة أبحث عن عمل، أي عمل! ها أنا ضمن تلك القوافل، ها أنا أخطو نحو الجامعة مثلهم، كان شعورا رائعا، نقلني إلى أحلام جميلة لم أميزها ولم أدركها، ولكنها اكسبتني بهجة وسعادة وأشعر أنها تخبئ لي فرحا قادما. أخذت الأوراق المختلفة التي تحدد

المقررات المطلوبة مني، وتواريخ الامتحانات التي عليّ حضورها، أما المحاضرات فقد كنت "منتسبة"؛ أي لست ملزمة بالحضور إلى قاعات الدراسة، واخترت هذا النظام لأتمكن من العمل في نفس الوقت. فرحت كثيرا بالدراسة خاصة أنها جاءت في وقت كنت أشعر أني أرغب بتطوير نفسي، ولكي أتعرف على هذا العالم الجديد الذي يسمى جامعة.

*****

مرت الشهور واكتمل بحث الدكتورة وشركائها، كانت الأستاذة سامية تعمل على البحث أولا بأول على جهازها، وحرصتُ على قراءته عندما تمت طباعته ورقيا، قرأته أكثر من مرة حتى أستطيع فهمه، وكنت أتعرف لأول مرة على معنى التكنولوجيا، والمجال الذي تخصص فيه أخي، ولكنه لا يتحدث عنه أبدا في المنزل.

سافرت الدكتورة جليلة مع الأستاذ سعيد، شعرت بالحزن على الأستاذة سامية وشعرت أنه من الظلم أن يتحكم أحد بمصير الآخر دون مبرر. هل تعيش سامية حلما بأنها معهما، سافرت، حضرت المؤتمر، تعرفت على الأردن، قابلت الكثير من الباحثين ومسؤولي البنوك من دول مختلفة، هل رأت نفسها تلقي العرض عن البحث، ترد على الأسئلة وتنال التصفيق في نهاية عرضها؟ هل يكفي أن نحلم ونتخيل ونعيش الأوهام ونقنع أنفسنا أن ذلك الفتات من الحرية الشخصية كافٍ وأننا محظوظات بأن لدينا عمل؟!

مع سفر الدكتورة توفر لي الوقت لمدة أسبوع، كانت الدكتورة قد نصحتني بالذهاب إلى الجامعة لحضور بعض المحاضرات، وفعلا ذهبت وسرت مع جموع الطلبة مثلهم أمسك بيدي قليلا من الكتب وأحث خطاي مثلهم، أصبحت مثلهم وأسير معهم، وتحقق حلمي الذي وضعته في خانة المستحيل ووضعته الدكتورة في خانة الممكن.

وجدت نفسي في قاعة كبيرة تكتظ بالشباب في جهة والفتيات في الجهة الأخرى أغلبهن يضعن النقاب. كان المحاضر رجلا طويلا كبيرا في السن، يستخدم آلة العرض لعرض محاضرته ويستفيض بالشرح أكثر وأكثر، يسأل ويجاوبه البعض ويحاور فيرد عليه البعض، واقع وجدت نفسي غريبة فيه، نقاش ومعلومات وأمثلة حية، على الرغم من كوني موظفة وكنت أستوعب الأمثلة، لكني كنت غريبة.

انتهت المحاضرة وشعرت أني لن أستطيع التكيف مع هذه المحاضرات، وجدت نفسي غريبة، فالكل يتكلم مع الكل وأنا وحدي منزوية في مقعدي، ولكني صمدت وحضرت أكثر من محاضرة، واصلت الحضور لذلك الأسبوع فتأقلمت وتعرفت على بعض الطالبات، حتى يكنّ عونا لي فيما قد أحتاجه من معلومات، وأحببت الجامعة، واكتشفت أن بعض المحاضرات تتم بعد دوامي في البنك فقررت أن أواصل حضورها، ووجدت نفسي أندمج مع هذا العالم وأصبح واحدة منه.

*****

عادت الدكتورة من الأردن وشاركتنا الصور التي تم التقاطها في المؤتمر أثناء فعاليات المؤتمر وصور من رحلات إلى أماكن متعددة ضمن برنامج المؤتمر، كانت صورا مبهجة جدا، وشعرت بألم الأستاذة سامية المكبوت، كان ممكنا بكلمة من أخيها أن تكون ضمن هذه المجموعة من المشاركين وفي هذه الأماكن الرائعة. نظرت إليها، لم ألمح حزنا أو ألما، إما أنها اعتادت الأمر ولم تعد تعره أهمية، أو أنها لا تود إظهار ألمها، لا أدري؟!

مرت الأيام التالية، أقضي وقتي في العمل والدراسة، وتقضي أمي وقتها مع خالتي أم سهام ومع صديقات تعرفت عليهن ضمن سكان العمارة، وما كان يزعجنا إلا أخي الذي كان يتعثر في بعض المقررات فيضطر لإعادتها وأضطر لدفع رسومها مرة أخرى.

*****

وذات صباح كنت في مكتبي فسمعت صوت الدكتور مراد ينادي نوال بصوت عالٍ، ففهمت أنها ليست في مكتبها، ذهبت أستطلع فيما يمكن لي المساعدة؛ فطلب مني الدكتور أن أبحث بسرعة عن ملف أسود، بحثت في مكتب نوال وفي الأدراج المفتوحة، لم أجده وكان أحد الأدراج مغلقا والمفاتيح معلقة عليه، فطلب مني الدكتور وهو واقف أمام المكتب أن أبحث في الدرج السفلي المغلق، فتحته بالمفتاح وفعلا وجدت ملفا أسودا ولكن لفت نظري قبل أن أسحبه وأعطيه للدكتور وجود ملصق وردة عليه، استغربت فليس على هيئة ملف رسمي، قلبت الملف فانتثرت داخل الدرج عدة صور

للدكتور في مناسبات مختلفة وكروت ملونة عليها أشعار. هالني الموقف وزادت دقات قلبي حتى شعرت أن الكل يسمعها، سألني الدكتور عما حدث وقد لاحظ تسمري أمام الدرج السفلي، وقد شحب وجهي، وقبل أن أرد كانت نوال أمامنا وفي يدها الملف الأسود وهي تعتذر أنها أخذته لتصوير نسخ منه للأرشفة، أخذ الدكتور مراد الملف وغادرنا وهو يقول لها:

- اهتمي بصديقتكِ، يبدو أنها مريضة لقد شحب لونها.

ضحكتْ وهي تنظر إليّ وكنت قد رفعت نفسي من أمام الدرج وجلست على كرسي نوال وقد أغلقت الدرج وما زالت المفاتيح بيدي، قالت ليَ:

- هل أفزعكِ صراخ الدكتور؟ إنه يصرخ عندما يكون مستعجلا، لكنه طيب.

فقلت لها وأنا أمد يدي لها بالمفتاح:

- لا لم يفزعني الدكتور، أفزعتني تلك الثواني التي كان يمكن فيها أن أسلم للدكتور ملفكِ الأسود!

لم تفهم، ولكنها لاحظت تلك الدموع التي طلت من عيني، كانت دموع انفعال وخوف من موقف مرعب كان يمكن أن يحدث، سألتها:

- هل تحتفظين بمثل هذا الملف الأسود ذات الوردة في المكتب؟

فهمت ووضعت يديها تخفي وجهها، بينما نهضت وعدت إلى مكتبي ونبضات قلبي مازالت مضطربة وأنا أتخيل نفسي مادة يدي للدكتور بملف يحتوي على صوره وقصاصات غزل، وهكذا اكتشفت سر نوال، على الرغم

من صداقتنا التي تجاوزت العام لم تحكِ لي عنه ولم تلمح بأي شيء عنه ولم أشعر به نهائيا.

اقترب وقت الراحة وجاءت نوال إلى مكتبي وقالت:

- هل نصعد إلى الكافتيريا على السطح؟

وافقت بإشارة من رأسي ونهضت وصعدنا الدرج صامتات إلى السطح كأننا في عزاء، كان السطح خاليا، اشترت نوال طعامها من الكافتيريا بينما حملت طعامي الذي اعتدت إعداده في المنزل، أخذنا الطاولة الأبعد وجلسنا قبال بعض، مرت دقائق دون أن نأكل طعامنا فبدأت حديثها:

- لا أدري متى بدأت أحبه، حب من طرف واحد، وقبل أن تقولي لي، أعلم أنه متزوج وأعلم أنها زوجة جميلة لطيفة تعرفت عليها عندما ذهبنا لزيارتها مع الدكتورة جليلة والأستاذة سامية عند ولادتها بابنها الثاني، أعلم كل هذا، ولكني دون أن أقصد أحببته إلى أقصى درجة.

سكتُ وأنا انظر إليها، وعندما طال الصمت سألتها:

- وكيف تتخيلين نهاية هذا الحب؟!

قالت بصوت مخنوق:

- لن تصدقي إذا قلت لك أنني لا أتمنى أن يشب بينهما أي خلاف! وألا ينفصلان! على العكس تماما، أتمنى لهما كل السعادة! كنت أتمنى التعرف على زوجته، وحدث فعلا، لن تصدقي أني لم أشعر

بالغيرة تجاهها، بالعكس لقد أحببتها، كما أحببت كل شيء له علاقة به.

- ثم؟!
- لا شيء! لا أرغب بشيء! يكفي أن يظل سري بيننا فقط، أنا راضية بما أنا عليه ولا أريد من الله أن يغير حالي. أما بخصوص الملف فلا أستطيع أن أحتفظ به في منزلي، ولكني سأجد له مكانا آخرا طالما كان يمكن أن يكشف الأمر بهذا الشكل المرعب!

ابتسمتُ فابتسمتْ وأخفيتُ وجهي بيدي وصحتُ ضاحكة:

- أي كارثة كنتِ ستضعينني فيها لو كنت سلمت له الملف الملغم!

ضحكنا وفتحنا أكياس الأكل وبدأنا نأكل، قالت نوال:

- أعترف أني مسرورة لأنكِ كشفتي هذا السر، الآن أستطيع أن أشارك صديقة لي بمشاعري بدلا من كبتها داخلي دون متنفس.

وساد الصمت إلا من أصوات بعض الموظفين الذين صعدوا لوقت الراحة، وكنت أفكر ما هو الحب؟ هل ما تشعر به نوال نحو الدكتور مراد هو ما تشعر به سهام نحو عشاقها الكثر؟ لا شك أن الحب أنواع! هكذا فكرت. نظرت إلى نوال وكانت غارقة في أحلامها وحزن عميق يطل من عينيها ويتسرب إلى قلبي، حزنت من أجلها وخشيت من نهاية هذا الحب على صديقتي المرحة.

بدأت أراقب نوال عندما تتحدث مع الدكتور مراد إذا حضرنا اجتماعات مشتركة، وأراقب أكثر نظراتها إليه عندما لا تتحدث معه، كيف لم ألحظ من قبل، لقد كانت نظراتها إليه كلها حب وإعجاب، تعاملها معه بكل تفان ولطف، لم أتخيل وجود حب دون أمل بلقاء، ولكنها كانت مكتفية بذلك الشعور داخلها، فقد احتل قلبها دون منافس وحجب الرؤية عن أي بديل.

*****

انشغلت بدراستي، وحصلت على درجات جيدة جدا، وكان للمقررات التي أدرسها في الإدارة دورا كبيرا في فهمي لعالم الأعمال والإدارة، واتنبه للمهارات التي يجب أن أدرب نفسي عليها، وقد أثر بالتالي على طريقة عملي، فبدت الدكتورة مسرورة من نظام العمل الذي أسسته وألزمتُ كل من له علاقة بعمل الدكتورة على الالتزام به.

(6) عادات وتقاليد

وذات يوما صـــعدنا إلى الكافتيريا لتناول فطور جماعي بمناســـبة عقد قران زميلتنا ليلى إحدى الموظفات اللاتي قابلتهن خارج البنك في ذلك اليوم، جلســنا مجموعة تقارب العشــر موظفات، نمزح مع ليلى ونضــحك معها، كما هو معتاد من الفتيات ممازحة صـديقة مقبلة على الزواج، ولا ننسـى أن ندخل في حديثنا بعض النكت على الزملاء، جاءت الأسـتاذة سـامية، فقد كانت ضمن المدعوات.

تعمل ليلى موظفة في إدارة البحوث والدراسات، الإدارة التي ترأسها الأستاذة ســـامية، جلســـتْ معنا، ولاحظتُ أن الحديث تغير وبدأت الفتيات أكثر حرصا وتلاشى الحديث عن الزملاء، ودار على الزواج بشكل عام ومشاكل العمل، مرت الراحة وبدأت الفتيات يغادرن بالتدريج وقامت الأستاذة سامية مع ليلى وهن يتحدثن عن العمل، لم يبق إلا أنا ونوال.

فقلت بعد أن ابتعدن جميعا وغادرن السطح:

- لدي سؤال، هل تغير نوع الحديث عندما جاءت الأستاذة سامية أم أني توهمت؟

ردت نوال ضاحكة:

- طبعا تغير، وهل تتوقعين منهن الحديث عن الزملاء والحب وهذا النوع من الأحاديث أمام الأستاذة سامية؟!

- لما لا؟ إنها لطيفة وودودة ومازالت شابة، أعتقد أنها لم تتجاوز الثلاثين من العمر. أعتقد أن بشرى أكبر سنا منها، أعتقد أن بشرى أكبرنا سنا!
- نعم، لكن شيئا ما في شخصية الأستاذة سامية يجعلكِ تضعينها في مرتبة أعلى من بقية الزميلات، ولا تنسي أنها مديرة، فهي نائبة مدير إدارة البحوث، بينما بقية الفتيات موظفات عاديات دون مراكز كبيرة.

سكتنا وسرحت كل منا في أفكار مختلفة وظل فكري يدور بشأن الأستاذة سامية، فعدت إلى نوال قائلة:

- سؤال آخر، الأستاذة سامية جميلة، ولها صفات رائعة كثيرة، كما أنها موظفة ذات مركز، لما لم تصادف الشاب المناسب إلى الآن؟ هل تعرفين السبب؟

أخرجت نوال ورقة من ملف كان أمامها وهي تقول:

- رغم أنكِ ستأخرننا عن العمل، ولكن سأوضح لكِ السبب ببساطة.

وبدأت ترسم دائرة كبيرة وقالت:

- تخيلي أن هذه الدائرة هي كل الشباب الذين من المتوقع أن يتقدم أحدهم للأستاذة سامية. قبل أن أكمل رسمي يجب أن تعرفي أن أسرتها من الأسر الهاشمية.

سألت:

- ماذا يعني هذا؟

ضحكت نوال وقالت:

- لا أدري لو لم تتعرفي عليّ من كان سيثقفكِ؟ الأسر الهاشمية هي الأسر التي تنتسب للرسول محمد صلى الله عليه وسلم، وهي أسر تعطي لنفسها مميزات كبيرة وتعتبر أن سلالتها مقدسة، ولذلك أغلبهم لا يتزاوجون إلا فيما بينهم، وخاصة الأسر المتشددة مثل أسرة الأستاذة سامية!

وخطت دائرة داخل الدائرة الكبيرة وظللت خارجها، وقالت:

- لذلك سنستبعد كل الشباب الذين لا ينتمون لهذه العائلات، وتكون دائرتنا الجديدة هي الشباب من تلك العائلات.

وأكملت:

- الأستاذة سامية امرأة لا ترتدي النقاب كما أنها تدرس ماجستير وهي موظفة وهذه صفات لا تناسب معظم الأمهات الآتي يخطبن لأبنائهن، واللاتي يبحثن عن فتيات أكملن الثانوية فقط ومنقبات ولا يرغبن بإكمال الدراسة أو العمل.

وخطت دائرة أخرى داخل تلك الدائرة الأصغر وظللت ما هو خارجها، وقالت:

- لذلك سنستبعد الشباب الذين يعتمدون على أمهاتهم في البحث لهم عن زوجات، فيبقى لدينا عددا محددا للشباب المناسبين لها،

وهم الذين يقابلونها شخصيا، ويتعرفون عليها فعليا، ومن الأسر الهاشمية، وبالطبع يجب أن نتوقع أن يكونوا عزابا، وهم ضمن هذه الدائرة الصغيرة المتبقية، فإذا كانوا سيقابلونها في البنك وهو محيطها الوحيد فكم عددهم يا ترى؟

نظرت إلى الدائرة فوجدت أن ما تبقى نقطة، سحبت نوال الورقة وقطعتها ورمتها في سلة المهملات وسحبتني قائلة:

- الله لا ينسى أحدا والنصيب مكتوب، هيا قبل أن نطرد من العمل.

شغلتني حكاية الأستاذة سامية، لقد تعرفت عليها كثيرا لأنها تأتي إلى مكتب الدكتورة بين الحين والأخر، ولأنها تساعدني في بعض ما يفوتني في المقررات التي أدرسها، وقد أعطتني الكثير من الكتب المستخدمة للمقررات حتى لا أتحمل عبء شرائها أو البحث عنها، كنت معجبة بها وأعتبرها نموذجا للمرأة الناجحة، بالطبع بعد نموذجي المفضل الدكتورة جليلة التي كنت أتخيلها ملاكا ينشر الخير على من حولها ولا تنتظر شكرا من أحد.

*****

ذات يوم عندما كنت في مكتبي أقوم ببعض المهام المطلوبة، شعرت بأحد يجلس على الكرسي أمامي وينفث زفيرا حادا، فكرت، من غيرها، بالتأكيد نوال، قلت دون التوقف عن العمل:

- خير يا نوال ماذا حدث؟!

لم أسمع ردا، رفعت رأسي، كانت نوال تحدق فيّ، قالت بصوت حاد:

- هل تتوقعين أن أشاركك همي دون أن ترفعي رأسكِ لتصغين إلى صديقتكِ!

اعتذرت ونظرت إليها:

- أعتذر كلي آذان صاغية.
- الدكتور مراد، سيسافر إلى لبنان!
- وما المشكلة! سيكون لديكِ وقتا رائعا للراحة.
- ومن قال لك أني أريد وقتا للراحة؟ فليس هذا ما يهمني.
- إذن ما الذي يهمكِ؟
- لقد سمعته يقول لمدير شؤون الموظفين أن يبلغ سكرتيره حساما ليستعد للسفر معه لأنه يحتاج لمساعد في هذا الاجتماع لرؤوساء البنوك في المنطقة العربية.

اقتربت مني وهمست:

- لما لم يطلب مني أنا السفر معه؟ أنا سكرتاريته وليس حسام!

اندهشت وأنا أتخيل نوال مسافرة هكذا ببساطة مع الدكتور مراد إلى لبنان، ولكني وجدت نفسي أقول لها:

- إذا كان من المفترض أن تذهبي أنتِ، فلكِ الحق بالسؤال عن السبب.

نظرت إليّ وبرقت عيناها بالفرحة:

- هل تقترحين ذلك؟ يجب أن أسأله، أليس كذلك؟

وقبل أن أرد كانت قد نهضت وركضت إلى مكتبها بفرح؛ لأنها وجدت طريقة لتعبر للدكتور عن غضبها لعدم اختيارها للسفر معه، رغم غرابة الموقف من وجهة نظري.

كنا نغادر البنك جميعا في نفس الوقت، أنا ونوال وليلى وبشرى، في نفس الحافلة، تغادرنا ليلى وبشرى أولا ومن ثم أنا وتبقى نوال الذي يبعد منزلها عن منزلي بمسافة قصيرة كما اكتشفنا مؤخرا، وهو منزل صغير مكون من طابقين وحديقة خلفية، زرتها فيه عدة مرات منذ أن أصبحنا صديقات. كانت نوال في نهاية ذلك اليوم صامتة، لبست نقابها فأخفت كل ما يمكن أن يشي بحالتها، وكذلك كانت ليلى وبشرى يضعن نقابهن أيضا خارج البنك، وحدي كنت محجبة فقط. لم تتحدث نوال طوال الرحلة على غير عادتها، حتى بعد أن غادرت ليلى وبشرى، وعندما نزلت من الحافلة قرب حارتي نزلت معي نوال، استغربت وسألتها:

- هل ستأتين معي لمنزلنا، أهلا وسهلا يسعدني ذلك.
- لا شكرا، فقط أريد أن أحكي لك ماذا قال لي الدكتور.
- بخصوص السفر؟
- نعم لقد قال أن حساما يتقن اللغة الإنجليزية جيدا كتابة ومحادثة بينما أنا لا أستطيع ذلك.
- سبب منطقي.

- نعم لذلك قررت أن ألتحق بمعهد لتقوية لغتي، وهو قريب منا، سوف أمر مشيا إليه الآن واستفسر عن الرسوم ويجب أن تسجلي أنتِ أيضا.
- ماذا؟!
- نعم ألم تقولي لي بأنه يجب علينا تطوير مهاراتنا؟ لذلك سوف أسجل اسمينا وسأحدثكِ غدا عما تم.

أشارت لي مودعة وذهبت في طريقها إلى المعهد الذي يقع في الطريق بين منزلي ومنزلها. مشيت نحو منزلي وأنا أتعجب من هذا الحب الغريب الذي حرك فيها الرغبة لتعلم اللغة الإنجليزية ونفذت ذلك دون أي تأخير. لم أمانع من الالتحاق بالمعهد مع نوال، لأنه كان برسوم مقبولة وكانت فرصة لتطوير نفسي أكثر فيما كنت قد اكتسبته سابقا من اللغة الإنجليزية، وفعلا ذهبنا إلى المعهد، ساعتين عصرا لثلاثة أيام، ومكنني مستواي السابق من دخول مستوى عال، بينما بدأت نوال من المستوى الأول.

(7) ومرت السنوات

كانت أفراح الزميلات، بمثابة أفراح لنا كلنا، كان زواج زميلتنا ليلى بمثابة دعوة للبهجة والفرح، شاركناها حفلات العرس التي تخطت ثلاثة أيام، ثم حفل الفستان الأبيض، بكل مباهجه وجماله، أخذت ليلى إجازتها لشهر كامل ثم عادت للعمل وكانت تبدو سعيدة. كما احتفلنا بعدها بحصول الأستاذة سامية على الماجستير، رتبنا طاولتين وفرشناهما بالمفرش الأبيض ووضعنا عليهما عددا من الأطباق التي تحتوي على الفطائر والحلوى وكانت الدكتورة جليلة من المساهمين في هذا الحفل، دعونا زميلات وزملاء الأستاذة سامية وباركنا لها حصولها على الماجستير، سعدت سامية بهذه الحفلة وثمنت اهتمامنا وتقديرنا، وحدثتنا عن خطتها لإكمال الدكتوراه.

*****

وهكذا مرت أربع سنوات لنا في هذه المدينة، تمكنت خلالها من الدراسة وأخذ مقررات خلال الفصول الصيفية، فحصلت على شهادة البكالوريوس في إدارة الأعمال خلال ثلاث سنوات ونصف، على الرغم من أن أخي قد بدأ قبلي لكنه كان لا يزال في الفصل الأخير!

كونت لنفسي عالما خاصا بي، شعرت أني لم أعد تلك الفتاة الغريبة، أصبحت أعرف المدينة جيدا ولدي عمل وصديقات وأهل ولدي معارف شخصيات في المجتمع مثل الدكتور مراد والدكتورة جليلة والأستاذة سامية، فشعرت أني تخطيت الصعاب وأني في مأمن حتى الآن. أصبحت أطمح

لمستقبل أكبر، ولما لا! ألم تقل الدكتورة جليلة أن المستقبل الزاهر مفتوح لمن يريد؟ ألم تقل الأستاذة سامية أن علينا سؤال أنفسنا ماذا نريد؟ نعم أريد أن أصبح شخصية مميزة تحظى محل تقدير واحترام عند الجميع، يجب أن أسعى لذلك وسأصل.

مرت أربع سنوات ولم يزرنا أخي الذي يسكن في الحديدة على بعد ساعات منا، ولم نسمع أي خبر عن أبي، ولكننا سمعنا أخبارا عن أخي الأكبر وليتنا لم نسمعها، علمنا أنه قد استقر في الإمارات منذ سنوات، وأنه يعمل مع تاجر يمني، وقد تحسن حاله وصار له عمله الخاص وتزوج ورزق بولدين، وكل هذه المعلومات عرفناها من خالي مؤخرا والذي علم بها من ذلك التاجر اليمني الذي كان على معرفة بخالي. رغم أن أخبار أخي الكبير كانت مبهجة، ولكنها لم تكن كذلك بالنسبة لأمي، سمعت أمي في تلك الليلة تنتحب وتدخل في نوبة بكاء مر، دخلت حجرتها وأنا أجهل ما الذي يبكيها بهذا الشكل، وجاء أخي أيضا مستطلعا، لم تكف عن البكاء، ولكنها أخفضت صوتها قليلا وبقينا ننتظر. وأخيرا قامت أمي من سريرها وجلست ومسحت دموعها فجلسنا معها على نفس السرير،

- بالتأكيد أنا سعيدة من أجل خالد، ولكني لم أتوقع أن تتحسن حالته فلا يتذكرنا ولا يتذكر كيف كنا نعيش في الحديدة.

نظرت إليّ أمي ثم قالت:

- إنه المسؤول يا خولة، هكذا هي العادات والتقاليد التي يحرص عليها المجتمع، إنه الابن الأكبر وهو المسؤول بعد رحيل أبيكِ وكان عليه أن يمد يده لمساعدتنا وتخفيف ثقل المسؤولية عنكِ.

سكتت وعادت تمسح الدموع عن عينيها:

- كم سهرت الليل أدعو الله أن يكون بخير وأن يوفَق وأن يعود ويقود مركبنا الصغير، كم سهرت والقلق يأكل قلبي وأتخيل كيف تمر أيامه؟ وأين ينام؟ هل يأكل؟ هل يشبع؟ ورغم كل هذا القلق، لم يخطر في باله أن يتصل بنا ليطمئن علينا ويعلمنا عن أحواله ويعلمنا بزواجه وأن لديه أبناء، لما حرمني كأم من عيش لحظات فرح زواجه وفرحة قدوم أحفادي؟! لما جعلنا نعلم عن أخباره بالصدفة ومن شخص غريب – تقصد التاجر–؟

عادت واستلقت على سريرها طالبة منا المغادرة وأنها سوف تنام فلا شيء يستدعي أن تحزن من أجله. خرجنا أنا وأخي سيف إلى حجرة الجلوس، نظرت إليه وقلت:

- مسكينة أمي كانت دائما تأمل الكثير من أخي خالد.

سرح سيف وهلة:

- لقد بعد عنا فنجح، فلِما يعود ويرتبط معنا بحظنا السيء!

ونظر إليّ:

- الحياة صعبة والمسؤولية ثقيلة، فكان عليه أن يختار إما النجاة بنفسه أو الاهتمام بالآخرين، فلا يمكن الاهتمام بالجميع.

وقام متجها إلى حجرته، بينما كنت مذهولة لا أصدق ما سمعته، هل يقصد أني اخترت إهمال نفسي والاهتمام بهم؟ وهل أهملت نفسي؟ لقد عملت ودرست وأشعر أني سعيدة، فماذا يقصد؟ هل كانت لدي حرية الاختيار أصلا؟ كان لتلك الليلة أثرا كبيرا في نفسي، شعرت أن أمي لا تثق بي وأنها كانت تأمل عودة أخي لنجدتنا، على الرغم من مرور هذه الأربع سنوات ولم نحتج لأحد، لم أطلب من أمي أن تعمل، لم أقصر في احتياجاتها، ولكن هناك شيء لم أفهمه تماما من وجهة نظر أمي، لا أدري؟!

*****

وأخيرا تمت خطبة سهام، رجل في الأربعين من العمر، شقيق جارتهم في الطابق الأول، مقتدر ماليا، سبق له الزواج ولم يوفق، وافقت بسعادة كبيرة وبدأت تستعد لحفل الزفاف.

وذات يوم بينما كنت أستعد للذهاب إلى عملي، أخبرتني الدكتورة أنها ستتغيب في ذلك اليوم، فقررت أن أنام لوقت أطول وأذهب إلى العمل متأخرة قليلا. استلقيت في سريري والأفكار تتداخل في عقلي، فلم أستطع أن أنام كما رغبت، كانت الساعة تقترب من التاسعة عندما سمعت جرس المنزل، استغربت من يكون القادم في هذا الوقت المبكر، وقبل أن أنهض، سمعت صوت أمي تستقبل خالتي أم سهام، وجلسن في صالة الجلوس والتي تعتبر

غرفتي جزءا منها، وصل لمسامعي حديثهما بوضوح فصرفت النية عن النوم وقررت النهوض لأسلم على خالتي وأتجهز للذهاب إلى العمل. ولكن حديثهما وصل إليّ واضحا؛ فلم تكونا على علم بوجودي، توقفت عن الخروج وسمعت خالتي تقول:

- الحمد لله أن توفقت سهام بعريس، أحلم باليوم الذي أطمئن عليها في بيت زوجها، وإن شاء الله يأتي نصيب خولة.
- لا! إن شاء الله يتأخر هذا النصيب، أو لا يأتي، إنها محور حياتي، لم أعد آمل من أحد من أولادي الاهتمام بي، فماذا سيحدث لي لو تزوجت ورحلت؟
- ولكنها سنة الحياة، وسيف شارف على الانتهاء من الدراسة وسوف يجد بهذا التخصص عملا مناسبا وجيدا.
- لا.. لا! أعلم أنه سينشغل بنفسه، إنه لا يهتم بنا، لو كان مهتما لوجد عملا منذ البداية وليس بعد التخرج، على الأقل أثناء شهور الصيف، لكنه لا يفكر إلا بنفسه.
- مسكينة خولة لقد تحملت المسؤولية كاملة، حتى أنتِ لم تساعديها ولم تبحثي عن عمل.
- لقد جربت في الحديدة ولم أوفق ونحن لا نريد أكثر مما تحصل عليه خولة فلما أتعب نفسي؟

- ما زلتِ بصحتكِ وقوتكِ، إنكِ أصغر مني، كان يمكن أن تأسسي لنفسكِ وظيفة جيدة.
- لا أريد، أنا هكذا مرتاحة.

بعد تلك المحادثة دخلتا في حوار خاص بتجهيزات عرس سهام، وقررت أن أحبس نفسي في الحجرة حتى لا تعرف أمي أني سمعت هذه المحادثة التي لا أعرف هل أفرح لأن أمي تثمن جهودي؟ أم أحزن لأن الجميع يستنكرون لماذا أخي لم يعمل منذ البداية؟ ولماذا لم تساعدنا أمي أيضا؟ والسؤال الأهم ماذا لو تزوجت؟ لم يكن الزواج هاجسا في حياتي ولم أفكر فيه كثيرا، ولكني كنت أتخيل نفسي أمّا، ولدي أطفال، أهتم بهم وأعيش من أجلهم، لذا شعرت بقلق، هل يمكن أن أقضي حياتي لأعمل وأعيل أمي وأخي فقط؟!

(8) القادم الجديد

كانت السنة الخامسة لي في العمل مميزة، حصلت على البكالوريوس فزاد راتبي، أتقنت اللغة الإنجليزية أكثر فثمنت الدكتورة ذلك، ومازالت نوال تحاول تحسين لغتها وتجتهد من أجل ذلك، كنت سعيدة بعملي وبمديرتي الدكتورة جليلة وبصديقتي المرحة الرائعة نوال. بدأ أخي سيف يشعر بالمسؤولية وتغيرت شخصيته، نضج أكثر فقدر الوضع أكثر، حصل على عمل في المساء في مكتب –أحد أقارب صديقه – لصيانة الموبايلات، فساهم في مصاريف ورسوم جامعته، ولم يعد يرسب فوفر مصاريف الإعادة، وراقبت أنا وأمي ذلك بفرح!

بدأ البنك مشروعا جديدا، عُيّنت الدكتورة جليلة رئيسة للمشروع وكونت فريقها من الأستاذ سعيد والأستاذة سامية ومن موظف جديد انضم للبنك من أجل هذا المشروع وهو الدكتور نادر الخبير الاقتصادي كما عُرف عنه. وكانت مدة المشروع عاما كاملا، ولكن الدكتور نادر وُظف بشكل دائم.

بدا لي الدكتور نادر شخصا لطيفا، متعاونا ومجتهدا، وسيما، طويلا، له بشرة فاتحة، لعينيه بريق محبب، تشع بهجة، شعره أسود مجعد تجعيدا ناعما، عرفت من الدكتورة جليلة أنه درس الاقتصاد في رومانيا وأكمل كافة مراحل الدراسة هناك، البكالوريوس والماجستير والدكتوراه، وعاد مؤخرا إلى اليمن ولا أعرف لما سمي بالخبير الاقتصادي وهو خريج جديد!!

كان دوري في المشروع توثيق الاجتماعات وكتابة التقارير باللغة العربية والإنجليزية، لوجود جهة أجنبية في هذا المشروع، فزادت مسؤولياتي وزاد عبء العمل عليّ كثيرا. تكللت بداية المشروع بالنجاح، أو هكذا أشار فريق العمل وبسبب هذه النتيجة قام البنك باستضافة مجموعة من مدراء البنوك اليمنية للاجتماع خلال ثلاثة أيام، عملنا بشكل مكثف، فريق المشروع والدكتور مراد ونوال وعدد من الموظفين في البنك، أعدوا ورش عمل ومحاضرات ولقاءات ضمن جداول زمنية لمدة ثلاثة أيام، تعرفت على الدكتور مراد –رئيس البنك– أكثر خلال هذه الفترة وتعاملت معه كثيرا، فعرفت لما أعجبت به نوال، كان لطيفا، يضفي على الجو نوعا من الألفة والمحبة، لا تظهر منه تلك الشخصية العصبية إلا إذا لاحظ إهمالا بما يخص العمل، عندئذ تختفي تلك الشخصية اللطيفة وتظهر شخصية أخرى تماما.

كما تعرفت أكثر على الدكتور نادر والذي كان يستغل فترة الراحة فيأتي إلى مكتبي ويتحدث عن رومانيا وعن الحياة في الخارج وعن النظام المتبع هناك، ويبدي استغرابه من حجم الفوضى في بلدنا، كنت أسمع منه وأكمل البحث عن المعلومات من الإنترنت، ولم أكن أعي ماذا يقصد بالفوضى في بلادنا، فلم أكن أشعر إلا أننا بأفضل حال!

بدأت أعتاد على زيارات الدكتور نادر وأنتظرها وأنكر ذلك إذا ما سألتني نوال مازحة عن سبب هذه الزيارات وعن شعوري تجاهها، كنت أتأمله وهو يتحدث وأشعر أنه مختلف عن كل الزملاء في البنك، لم أحاول تحديد هذا

الاختلاف ولم أناقش شعوري حتى مع نفسي، ولكني اكتشفت أنه يحتل جزءا كبيرا من تفكيري وأني أسترد حوارنا مع نفسي عدة مرات.

*****

وسط مشاغلي هذه بدأت مراسيم عرس سهام، ساعدتها في كل أمورها وتجهيزاتها كأخت، فرغت لها كل وقتي مساء وكل أيام الجُمع، وبالمقابل سمحت لي بدعوة من أريد من صديقاتي، فبالطبع دعوت نوالا وبشرى وليلى وترددت بخصوص الأستاذة سامية والدكتورة، ولكن نوال شجعتني، فقمت بدعوتهما.

كانت حفلة سهام بإحدى القاعات المخصصة للأفراح وهي قاعة متوسطة الحجم بسيطة التصميم، حرصت على حجز طاولة لصديقاتي، وأسعدني حضورهن جميعا، كانت نوال المساعدة لي فيما يخص مجموعتنا، جاءت مبكرة ونبهتني لقدوم الدكتورة والأستاذة سامية، استقبلتهن وعرفتهن عند المدخل على خالتي أم العروس وعلى أمي، أسعدني التعرف عليهن بجو احتفالي كهذا، وجاءت بعد ذلك بشرى وليلى فضمت الطاولة جميع صديقاتي، فرحت أمي كثيرا بحضورهن وجلست معهن بعض الوقت كما احتفت بهن خالتي، دخلت العروس سهام بأجمل إطلالة، سعدت من أجلها وتمنيت لها السعادة من أعماقي، سمعت التهاني المقدمة لها وسمعت صديقاتي يرددن العقبى لكِ خولة.

كان عرس سهام، أيام مستقطعة لنا، عدنا بعدها نتابع عملنا المكثف وتجهيزات اللقاء التشاوري الذي يقوم فيه البنك، مضت أيام التجهيزات بكثير من الجهد وكنا نتأخر في البنك وكنت أعود للمنزل مع نوال بسيارة الدكتورة، وهكذا انتهت الأيام الثلاثة للقاء التشاوري، وجاء "اليوم الأهم" وفقا لاستمرار تسميته من قبل الدكتور مراد، وهو الاحتفال بنهاية اللقاء.

تم عمل حفل الختام بإحدى القاعات المخصصة لذلك وتم ترتيب طاولات ترتيبا رائعا وعمل بوفيه عشاء تحت إشراف مطعم مميز، كنا جميعا مدعوين للحفل، حضرت مجموعة من الموظفات وأخذنا طاولة في إحدى زوايا القاعة وتجمعنا فيها جميعا –نحن الموظفات–، ومعنا الأستاذة سامية، بينما كانت الدكتورة في إحدى الطاولات الأمامية وكان زوجها حاضرا، فسررت بالتعرف عليه.

جلسنا نتكلم ونضحك في جو لم أتخيل أن أجد نفسي فيه يوما ما، كل شيء حولي يبرق ويلمع، رجال بملابس رسمية ونساء بالعبايات الرائعة والحجابات الملونة والحركة حول الطاولات من قبل النادلين بملابسهم الرسمية، منظر ما كنت سأستطيع تخيله حتى لو حاولت، وكنت قد تعلمت خلال هذه السنوات أن أكون أنيقة بعبايتي وحجابي وتنوعت لدي حقائب اليد، وكل هذا بمساعدة نوال وسهام.

استأذنت الأستاذة سامية وأخبرتنا أن الدكتورة طلبت منها الجلوس إلى طاولتها لأنها ضمن فريق المشروع، وغادرتنا على استحياء وتردد. تم افتتاح البوفيه

وانتظرنا انتهاء طابور الضيوف وقمنا أخيرا للعشاء، بعد انتهاء العشاء بدأ أغلب الضيوف بالانصراف وتفرق الآخرون يتنقلون بين الطاولات للحديث مع هذا أو ذاك، وجلسنا نحن الموظفات الباقيات نحتسي القهوة.

كان يمكن أن يكون اليوم جميلا ورائعا فقط، ولكن ما حدث بعد ذلك جعل منه يوما مميزا في حياتي، جاء الدكتور نادر وسحب أحد الكراسي وانضم لطاولتنا وجلس بالقرب مني وبدأ يحدثني عن الحفل وعن ذاك وتلك بطريقة عفوية وطبيعية، ولكني شعرت بهمس زميلاتي وضحكات خافتة، تدفق الدم إلى وجهي وحاولت أن أشاركه الحديث فجاء صوتي خافتا جدا، حاولت أن أشير لهن بالسكوت، ولكن نوال كانت قائدة المجموعة وكانت تبدو سعيدة بالتأكد من سر كما تخيلتْ.

كان نداء الدكتورة لي ولنوال بمثابة طوق نجاة، وضعت نوال نقابها وهي تخفي ضحكتها وقالت:

- أعتذر يا دكتور نادر، ولكن الدكتورة تنادينا، سوف تأخذنا في طريقها إلى منازلنا، يمكن لكما إكمال الحديث يوم السبت في البنك.

نهضت وأنا أستشيظ غيظاً من نوال وتلميحاتها غير اللائقة، ومشينا ثلاثتنا أنا والدكتور نادر ونوال، مودعين بقية الزميلات اللاتي قمن أيضا استعدادا للمغادرة.

وصلت المنزل، لم يكن الوقت متأخرا كثيرا، كانت أمي في صالة التلفاز تتابع إحدى المسلسلات بينما كان أخي في حجرته يدرس استعدادا للامتحانات النهائية، استعدت أمي وأخفضت صوت التلفاز تنتظر حديثي عن الحفل، جلست وقصصت عليها كيف كانت الحفلة، وشعرت بالخوف من أن تلمح في وجهي أي تعبير لا أريده أن يظهر، وبالفعل سألتني:

- لما أنتِ مضطربة! هل حدث في الحفلة ما أزعجك؟ هل قصرتي في شيء ما؟

لملمت تفكيري الشارد وركزت على واقعي، وقلت لها:

- لا لقد كانت حفلة جميلة! وعلى أي حال كنا مدعوات ولم تكن علينا أي مسؤولية، ولكني متعبة، سأذهب للنوم.

غادرت صالة الجلوس وعادت أمي ترفع صوت التلفاز قليلا وتواصل متابعة المسلسل وهي تطمئنني أنه سينتهي بعد قليل فلن يزعجني الصوت. دخلت حجرتي تمددت على سريري، وشعرت بشعور متضارب داخلي، وبدأ حوار شديد اللهجة يعصف أعماقي؛ لما الحجرة ضيقة هكذا؟ ولكن هي نفسها لم تتغير فلما تزعجني الآن؟ لما أنا حزينة وقد كانت الحفلة رائعة ومسلية؟ ولكني لست حزينة، أنا سعيدة، لما أنا سعيدة؟ لما غمزت لي نوال قبل أن تغادر السيارة؟ ماذا تريد أن تقول؟ والأهم لما جاء الدكتور نادر وجلس بجانبي؟ وعدت أخاطب نفسي المضطربة، ماذا تقصدين يا خولة؟ إنها حركة عفوية؟ إلى أين تريد ضحكات وهمسات نوال أن تسحبكِ؟ لقد عاش نادر

وقتا طويلا في الخارج وهذه تصرفات طبيعية هناك، توقفي عن أي شك، وهل يعقل أن يهتم بكِ أنتِ الموظفة المنغمسة في مهامها؟ وجدت نفسي أنتقل من موقف إلى آخر وأحاول أن أتذكر ما هو الحوار الذي دار بيننا وماذا كان يقول فلم تسعفني ذاكرتي، سمعت صوته وهو يقول ولكنكِ فتاة مجتهدة يا خولة، هل قال هكذا؟ لا أذكر، هل بدأ عقلي يرسل لي رسائل خاطئة؟ وتسلل النعاس إلى عيناي، وهدأت أفكاري وتلاشت الصور من أمامي ونمت.

*****

عندما نهضت في الصباح اكتشفت أني نمت دون أن أخلع عبايتي أو حجابي وأني نمت كما وصلت من الحفلة، واكتشفت أن الساعة قاربت العاشرة، فزعت رغم أنها الجمعة، وشعرت أني متخبطة في تصرفاتي، فنهضت سريعا أبدل ملابسي، ولبست ملابس المنزل قبل أن تكتشف أمي أني نمت بملابس الخروج. وبمجرد أن أكملت لبسي سمعت دقات على بابي ودخلت نوال وهي مبتهجة وتصيح:

- هل ما زلتي نائمة؟ لم تفطري بعد؟ اعتقد أنكِ حتى لم تفتحي تلفونكِ ولم تقرأي رسالتي أني سأحضر.
- لا، الآن فقط استيقظت من النوم، لا تنسي أنها الجمعة.
- هيا نخرج! أدعوك اليوم للفطور في الخارج.

شعرت أنها ليست دعوة، ولكنها أمرا، فعدت أغيّر ملابسي وألبس عبايتي وحجابي، أبلغت أمي أني سأعود بعد ساعة. وخرجنا معا ومشينا ونحن

نتحدث أحاديث عامة إلى أن وصلنا إلى الكافتيريا التي نذهب إليها بين الحين والآخر، طلبنا البيض والجبن والقهوة وبدأ التحقيق، قالت نوال:

- كيف تخفين عني علاقتكِ مع الدكتور نادر؟ وأنا صديقة مقربة لكِ وأودعتكِ سري الذي لا أحد يعرفه!!

نظرت إليها بدهشة:

- أي علاقة وأي سر؟ لا شيء مما يدور في خيالكِ يا نوال، لقد جلس معنا جميعا، ولكنه صدفة جلس بجواري.

ضحكت نوال وأخفت وجهها بيديها لتكتم ضحكاتها:

- وهل شاركنا الحديث! لقد اكتفى بالحديث معكِ.

أقسمت لها ألا شيء بيننا وأنه لم يحدثني حديثا خاصا مسبقا، وعدت واستذكرت حديثه أثناء فترات الراحة عندما كنا نعمل على المشروع، فعقبت:

- إلا فيما ندر.

بدت نوال أكثر جدية:

- لا أخفي عنكِ يا خولة لقد لفتت نظري تصرفاته تجاهكِ من قبل، ولكني لم أعر الأمر أهمية، ولكن لنكن واقعيات، ما حدث بالأمس كان واضحا وأشبه بإعلان!
- وهل تتوقعين أن يهتم بي دوناً عن كل موظفات البنك؟
- ولما لا؟ للقلب شؤونه الخاصة، وأنتِ فتاة جميلة وذكية، مؤهلة، ماذا يريد أكثر من ذلك!

لف الصمت جلستنا، وسرحتْ في عالمها الخاص، وسرحتُ في عالمي الجديد، ماذا تقصد بإعلان؟

*****

عندما وصلت البنك يوم السبت، فهمت ماذا تقصد بإعلان، وبدأت الحركات الغريبة من حولي، جاء أكثر من موظف من زملائي يسألني هل الدكتور نادر موجود؟ وكأنني سكرتاريته الخاصة، ومع السؤال ابتسامة مخفية! أما زميلاتي فقد عملن جلسة تحقيق أثناء راحة الفطور وانضمت لجلستنا في السطح المجموعة اللاتي حضرن الحفلة وبدأت الأسئلة مباشرة وكأنه أمر مفروغ منه، أكدت لهن بأن خيالهن أكبر من الواقع، وألا شيء مما يمزحن به حقيقي، ولكن الواقع أني بدأت أتهيب وأتردد من مقابلة الدكتور نادر. لا أكنّ شعورا نحوه ولا أعرف ماذا يعني أن يهتم أحد بالآخر؟ كلها أمور جديدة عليّ، فمن أسأل؟ هل نوال التي تؤمن بالحب والتي ستجرني جرا نحو علاقة لا أعرف مدى صدقها؟ أم سهام! التي تؤمن أن الحياة تجارب علاقات إلى أن يأتي النصيب! أم أمي! التي تخشى أن أتزوج وترعبها الفكرة! من يمكن أن أسأل؟ تقلصت على أي حال لقاءاتي معه، بسبب اتخاذ المشروع مسارا لا يتطلب وجودي، ولكنه كان يمر على مكتبي كلما أتيحت له الفرصة وسط المشاغل المكثفة لسبب أو بدون سبب، رغم أن مكتبه كان بعيدا عن مكتبي. لم يبد على الدكتور نادر أنه تنبه للهمس بخصوصنا في البنك، لا أدري ربما لم يهتم، ولكنه واصل مروره شبه اليومي إلى مكتبي، ومع الأيام اتخذ حديثه

تنوعا جديدا وبدأ يتكلم عن الحياة الأسرية وعن رغبته بالاستقرار، وبدأ الخوف يتسلل إلى حياتي الهادئة. ماذا يريد مني هذا القادم الجديد! ولما قرر التقرب مني بهذا الشكل وبهذه السرعة!

وذات يوم قال لي دون أي مقدمة:

- هل يمكن لنا أن نتعرف على بعضنا البعض أكثر خارج البنك.

لم أستوعب طلبه وشعرت بالخوف والغضب ولم أعرف ماذا عليّ أن أرد، فسكتُ، أكمل طلبه:

- طبعا في مكان عام، يوجد كثير من المقاهي حيث يمكننا أن نتقابل، ما رأيكِ؟!
- لا أستطيع! قلتها بصوت خافض وأنا أبحث بنظري إذا ما كان أحد يسمع حوارنا.
- لماذا؟
- لن تسمح لي أمي بهذا اللقاء، وإذا أخفيت عنها فهذا يدل على وجود خطأ.
- أعتذر عن طلبي! قالها وهو واقف ونظر إليّ وذهب.

عاتبتني نوال كثير ولم تسامحني عن صدي له وقالت إن رفضي يدل على عدم موافقتي على تطور العلاقة، وأني سوف أخسره دون داعٍ.

عدت إلى البيت وأنا مشغولة التفكير، افكاري تصارع أفكاري وتتركني نهبا للحيرة لدرجة لم تحدث لي من قبل، سهرت الليل بطوله ليس للأسباب التي

كنت أسهر بسببها قبل حصولي على العمل، ولكني سهرت معه في خيالي، وجدت نفسي ألمح له بمشاعري التي لم أجد لها تفسيرا أعرفه، وحدثته بأنه مميز في حياتي وأنه مهم وأني ربما أحبه...

عاتبني قلبي أني خذلته، وسحبني إلى عالم آخر، أنا ونادر معا، تتشابك أيادينا ونسير في طريق واحد، تتحد أحلامنا وأمنياتنا ونبني حياة زاهية، عالم لنا وحدنا، ووجدت قلبي يفتح كل الحجرات ليحتلها نادر وحده ويجملها بكثير من الورد والأحلام والأمنيات، تركت قلبي الحالم وعدت ببطء إلى ما حدث، هل خسرت كل هذه السعادة؟ أفزعني الاكتشاف، حاولت أن أنام ولكن أذان الفجر أخبرني أن الصباح آت وأن وقت النوم قد مضى.

مرت أيام ولم يأت الدكتور نادر إلى مكتبي وكنت أعرف أن حجم انشغالهم وقرب اكتمال العمل كان كبيرا، ولكني فسّرت ذلك ربما بما قالته نوال، أن رفضي للقائه سيشعره بعدم اهتمامي به ولذلك توقف عن المجيء، شعرت بحزن كبير، وشعرت أني أفتقده، ولكني لا أرغب بطريقة اللقاء هكذا! تحكم بي عن بعد ووجدت نفسي أفكر فيه أغلب أوقاتي، أفتش عنه بين الموظفين العابرين من أمام مكتبي، اتلصص عن أخبار تحمل في ثناياها أسمه، تعبت ولكني لم أبادر بأي حركة اتجاه.

ولكن كما يبدو أن رفضي اللقاء خارج البنك جعله يتخذ خطوة جادة، مر قرابة الثلاثة أسابيع من اعتذاري له ووجدت الدكتورة جليلة تحدثني أنه طلب

منها إخباري برغبته بالتقدم للزواج مني، استدعتني في أول اليوم بمجرد وصولي، وقالت لي وهي تبتسم:

- خولة! أود الحديث معكِ، وسوف أختصر ودون مقدمات، الدكتور نادر يود التقدم للزواج منكِ.

نظرتُ إلى الدكتورة بدهشة، لم أتوقع أن يتخذ هذه الخطوة بهذه السرعة، رغم شعوري المتزايد يوما بعد يوم نحو الدكتور نادر، إلا أن هذا القرار كان أكبر مفاجأة حدثت لي.

وكما يبدو أن ملامح وجهي لم تعط الدكتورة إشارة بفرحة، فقالت:

- هل يوجد شخص آخر في حياتك؟ أخبريني حتى لا نطيل انتظار الدكتور نادر.

عاد صوت أمي يرن في إذني "لا! إن شاء الله يتأخر هذا النصيب، أو لا يأتي"، لم أدر ماذا يمكن أن أقول، ولكني جمعت شتات نفسي وابتسمت للدكتورة وقلت لها:

- دعيني أخبر والدتي أولا.

فقالت:

- بالتأكيد يا خولة، أنا فقط أود التأكد أن نادرا مقبول لديكِ، أنتِ الأهم في هذا الحدث، فإذا كان مقبولا لديكِ فبالتأكيد هناك الكثير من الخطوات التي ستتم بين العائلتين.

رنت كلمة "العائلتين" في عقلي، هل أملك عائلة؟ أين أبي؟ أين أخوتي، وافقتها بهزة من رأسي، واستأذنت لأغادر، فسمحت ليّ وهي تنظر إليّ محاولة معرفة هل سعدتُ بهذا الخبر أم لا؟، بالتأكيد فشلتْ في معرفة هذا، فأنا نفسي لم أعرف إذا كان هذا الخبر سعيدا أم لا! ولكن أليس هذا ما أعيشه كل ليلة مؤخرا؟ أليس هذا هو الحلم الذي توقعت أني قد خسرته؟! لماذا نفقد القدرة على الفرح؟! ولماذا تكبلنا الكثير من المخاوف ونضع للآخرين حيزا يقيد فرحتنا؟ لماذا نقلل من استحقاقنا للبهجة ونخاف من السعادة القادمة؟ هل اعتدت على خطاي في الحياة وبت أخشى أي تغيير حتى لو كان ذلك يخص الساكن الجديد في قلبي؟!

عدت إلى مكتبي حائرة، أشعر أنه من الطبيعي أن يكون الخبر أكثر من رائع، ليس فقط لأن نادرا شاغل وساكن في قلبي، ولكن أيضا كل مواصفاته الشخصية والعائلية رائعة، فهو من أسرة معروفة اجتماعيا، شخص ناجح، لطيف ووسيم، ماذا يمكن أن تتمنى فتاة أكثر من ذلك! وعاد صوت أمي مسببا ضجيجا في رأسي ويربك أفكاري "لا! إن شاء الله يتأخر هذا النصيب، أو لا يأتي" وتذكرت كلام أخي "الحياة صعبة والمسؤولية ثقيلة، فكان عليه أن يختار إما النجاة بنفسه أو الاهتمام بالآخرين، فلا يمكن الاهتمام بالجميع"! فزادت حيرتي هل يمكن أن أتزوج وأواصل الاهتمام بأمي وأخي؟ وذهبت أبحث عن نوال قبل أن أضيع في هواجسي ومخاوفي.

قبل أن أصل إلى مكتب نوال، لاحظت أنها مشغولة ويجلس أمام مكتبها بعض الزملاء وكأنه اجتماع، ويبدو أنهم يقومون بعمل مطلوب بسرعة، فعدت إلى مكتبي واستأذنت من الدكتورة وغادرت البنك متوجهة إلى منزلي.

*****

تأكدت أني في مأمن عندما احتوتني حجرتي الصغيرة، وفتحت لعيني المجال لذرف الدموع المحبوسة، لا أعرف لماذا أبكي؟ ولكني بكيت ولم أفق إلا على يد أمي وصوتها الملتاع وهي تضمني إليها وتسأل عما أزعجني اليوم في العمل (كما توقعت) وسبب عودتي المبكرة وبكائي هكذا، لم أصمد أمام أمي ويجب عليها أن تعرف على أي حال، فأخبرتها بالقصة كاملة، وانتظرت النتيجة.

قالت أمي وملامح وجهها تتبدل وتتغير بمشاعر متناقضة:

- ولما تبكين! إنه خبر سعيد!

فنظرت إليها وقلت:

- ولكن كيف سنرتب وضعنا يا أمي، إن الزواج يعني أن أنتقل إلى حياة أخرى ومسؤوليات جديدة.
- لا تقلقي، لقد تخرج أخاك سيف وسيجد عملا بعد أن ينهي تدريبه في هذه الشركة، إن الله لا ينسى أحدا، يجب أن تفرحي بالنصيب الجميل الذي كتبه الله لكِ!

خرجت أمي من حجرتي وجلست أفكر هل هذا شعور أمي فعلا؟ هل بالغت في تخيلي أن هذا الخبر سيصدمها؟ وسيفقدها الثقة بي؟ هل هي سعيدة من أجلي؟ خرجت من حجرتي أغسل وجهي وأحاول إعادة ترتيب الأمور، يجب أن تخبرني أمي ما الذي يتوجب عليّ فعله؟ فموافقتي ستتطلب أن تقابل والدته أمي، وماذا عن غياب أبي؟ أم أن أخي جميل سيأتي ويقوم بمقام الأب؟ أم أن على خالي القيام بهذا الدور؟ اتجهت إلى حجرة أمي لسؤالها حول هذه التساؤلات، فوصلني نحيبها المكتوم وتبددت تلك الفرحة التي كانت تنمو داخلي بحياء.

عدت إلى حجرتي وغصت في أفكاري ومضى اليوم بطيئا، سمعت حركة أمي في المطبخ فنهضت واتجهت إلى المطبخ وعاونت أمي في تجهيز الغداء دون أن نتطرق لموضوع الدكتور نادر.

جاء أخي وجلسنا بعد تناول الغداء، قالت أمي وهي ترسم فرحة كبيرة على وجهها:

- سيف، ألم تبارك لأختك! لقد تقدم لها زميلها الدكتور نادر.

شهق أخي ولمعت عيناه بفرحة صافية نابعة من القلب وقال:

- دكتور؟؟ هل ستتزوج خولة دكتورا؟؟

قالت أمي وهي ترمقني بحب:

- إنها سليمة النية صافية القلب فأعطي لها الله نصيبا جميلا كجمالها.

قال أخي وهو ما يزال غير مصدق:

- وكيف سأتعامل معه؟ هل أقول له دكتور نادر أم نادر فقط.

وقهقه فرحا، وهو يصيح "في بيتنا دكتور"! فسعدت لهذا الجو وقررت أن أفرح.

اقترب وقت العصر وسمعت جرس المنزل يدق، فتحت الباب وكانت نوال تدخل بعفوية وتتجه إلى حجرتي وهي تقول:

- إذن أنتِ لا تزالين على قيد الحياة، لقد توقعت أنكِ رحلتي عن عالمنا. أين أنتِ؟ لقد اتصلت لكِ أكثر من مرة وأرسلت لكِ رسائل، ماذا حدث؟

تربعت على السرير وهي تقول:

- ماذا حدث؟ لقد سألت الدكتورة جليلة عنكِ فأخبرتني أنكِ ذهبتِ إلى المنزل مبكرة وقالت لي "كوني بجانبها"، فقلقت وأتيت من أجل أن أكون بجانبكِ، ماذا حدث؟

رغم أن الخبر أصبح معروفا في المنزل، ولكني لم أشعر بارتياح للتحدث فيه، مع علمي أن محادثتنا قد تصل لمسمع أمي بسهولة، فقلت لنوال:

- هيا نصنع قهوة ونأخذ بعض الكعك الذي أعدته أمي ونصعد للسطح حتى نتحدث براحتنا.

وعندما أصبحنا في مأمن من أن يُسمع حديثنا قلت لها دون مقدمات:

- الدكتور نادر تقدم للزواج مني.

وكما يبدو أنها كانت غلطة أن أقول هذا دون مقدمات، دهشت ورفعت يدها لا إراديا فسكبت القهوة الحارة على عبايتها، ورغم ذلك قامت وهي تسرع لنفض القهوة بسرعة عن عبايتها حتى لا تتأذى وقالت:

- ماذا؟ هل يمكن إعادة ما قلتي؟

سكتُ وأنا أبتسم، فجلستْ وهي تضحك وقالت:

- إنه مستعجل، مبااااااارك!!

فقصصت عليها ما دار بيني وبين أمي وأخبرتها بسماعي لنحيبها، وكانت نوال تعلم كل ظروفي، فطمأنتني وقالت:

- أنتِ ابنتها الوحيدة فلا بد أن بكاءها تعبير عن مشاعرها المختلطة وليس حزنا حقيقيا.

*****

أبلغت الدكتورة بموافقتي، وجرت الأمور بعد ذلك سهلة وجميلة، أخبرت أمي أخي وخالي في الحديدة، فتمت زيارة النساء لنا –أمه وشقيقاته، نادية التي تعمل معيدة في كلية الهندسة ونهى التي تدرس في قسم الأدب الإنجليزي– حاولت أن أرتب للزيارة حتى تكون مشرفة، فاشتريت طقم شاي جديد –لم نكن نملك واحدا– وبعض الحلويات والكعك، وحضرت الزيارة زوجة أخي جميل –جاءوا من الحديدة– وخالتي وسهام وكذلك دعوت نوال، فمرت الزيارة كما تمنيت وارتحت لوالدته وشقيقاته، وكذلك كانت زيارة الرجال جيدة، حضر مع الدكتور نادر والده وشقيقه الأكبر وأحد أعمامه، بالطبع

ضمت الجلسة أخي سيف وأخي جميل وخالي، وكانت تلك الأيام جميلة شعرت لأول مرة بأن لدي عائلة، كان الكل ينظر إليّ كأنني حققت إنجازا بهذا الزواج الذي يشهد الله أني لم أخطو خطوة لتحقيقه ولكنه كما يقال "النصيب".

تمت الخطوبة على نطاق ضيق، لتحديد العرس بعد ستة أشهر، وتحولت لقاءاتي مع نادر إلى جلسات إما في منزلنا بوجود أمي أو في منزله بحضور أهله، أو لقاءات قليلة في مقاهٍ جميلة، أماكن لم أحلم بدخولها من قبل، فمرت لقاءات التعارف بيننا رائعة وجميلة حملت لي الكثير من الأمل والسعادة، حدثته عن حياتي بالتفصيل وبكل معاناتي في بداية وصولي لصنعاء، حدثته عن أبي وعن أخوتي، سردت عليه حياتي كأني استرجعها كاملة مع نفسي، وحدثني كثيرا عن حياته وطفولته وسفره ودراسته في رومانيا وعن انشغاله بالدراسة، وأنه لم يكوّن لنفسه أصدقاء، فكان وقته موزعا بين الجامعة والدراسة في المنزل. سألته بحياء عن النساء في حياته، فضحك وقال:

- ربما اثنتان أو ثلاث، لا أذكر، لم أحب أي واحدة مثلما أحببتكِ ولم تتطور أي علاقة مثلما تطورت علاقتي معكِ، لقد رحلن دون أن يتركن أثرا، حتى أنني نسيت أسماءهن!

سكت قليلا وأردف:

- نحن الآن كيان واحد، نتشارك كل أحلامنا وكل همومنا وكل ما نفكر فيه.

نقلني نادر إلى أحلام وردية وفرش لي الطريق حبا واهتماما ورعاية لم أجدها في حياتي مطلقا.

وذات لقاء قال لي:

- خولة! أنتِ تستحقين الكثير، ويجب أن ترسمي لنفسكِ أحلام كبيرة وتسعي لتحقيقها.

ضحكت وقلت:

- لا أجيد الرسم، فهل ترسم لي أحلامي.

راقت له الفكرة فوضع كوب الشاي الذي كان يرتشف منه، وسرح قليلا ثم قال:

- أتخيلكِ وقد أنهيتِ الماجستير والدكتوراه وأصبحتِ أستاذة في الجامعة.

شهقت:

- مرة واحدة؟!
- لا! أولا يجب أن تتركي العمل في البنك، وتعملين معيدة في الجامعة، وتلتحقين ببرنامج الدراسات العليا، الماجستير أولا ثم ستكبر الفرص أمامكِ، وهكذا تضعين قدمكِ في أول الطريق.
- ثم؟

فقال وهو يكمل رسم الحلم:

- الدكتوراه ثانيا، وتصبحين أستاذة جامعية.

سرحت بخيالي وشاهدت نفسي أحاضر وأمامي طلاب وطالبات وسألته حالمة:

- وهل أستطيع إنجاز كل هذا؟!

فقال هو ما يزال يرسم ذلك المستقبل:

- نعم، سوف أقف إلى جانبكِ، سأدعمكِ وسأساعدكِ في كل الخطوات، وسنكون أسرة مميزة متعاونة بحب وإخلاص، سنكون نموذجا يحتذى به.

وهكذا رفعني نادر إلى طبقات السماء العالية، لم تعد قدمي تلمس الأرض، رسم لي حلما كنت لا أجرؤ على الحلم به ولم يمر بخيالي، فخيالي ضيق الأفق، رسم لي حلما من نماذجي المفضلة (الأستاذة سامية والدكتورة جليلة)، ومنحني شيئا مميزا لم أألفه، الشعور بالأمان وبوجود سند وداعم، وأني لم أعد وحيدة، وأننا كيان واحد.

وبعيدا عن هذا الحلم، اتفقت مع نادر على أني سأواصل العمل وسأواصل الإنفاق على عائلتي واستمرارية مسؤوليتي عليهم، وافق وأكد لي أن راتبي ملكي وأملك حرية التصرف فيه، وأنه وحده المسؤول عن بيتنا المستقبلي. ارتحت لهذا القرار وارتاحت أمي كثيرا وأحبت نادرا بصدق. خفّت التزاماتي عندما طلبت من الدكتورة جليلة المساعدة في إيجاد عمل لأخي سيف، فرشحته للعمل في شركة لأحد أقاربها، فتوظف بتزكية من الدكتورة جليلة، وبدا مسرورا بالعمل الجديد وأخذ الفرصة بجدية كبيرة.

(9) محنة صديقتي

ذات يوم كنت أستعد لمغادرة البنك توجهت إلى مكتب نوال فلم أجدها، وعرفت أنها في اجتماع مطول مع الدكتور وعدد من المدراء، وكانت الدكتورة جليلة ضمن المجتمعين، ولكنها لم تطلب مني الحضور، اتجهت إلى مدخل البنك فصادفت كالعادة ليلى وبشرى وهما في طريقهما للمغادرة، صعدنا الحافلة، قالت لي بشرى وهي تجلس إلى جانبي:

- سمعتي آخر الأخبار؟
- لا، ماذا حدث؟
- تم تعيين الدكتور مراد في وزارة المالية.

شهقت دون وعي مني، حتى أن البعض من في الحافلة نظروا إليّ وتسألت:

- ماذا؟
- تم تعين الدكتور وكيلا في وزارة المالية وسوف يترك البنك خلال الأسابيع القادمة.

سكت وسكتت بشرى، ودارت في خاطري نوال، كيف هي؟ ماذا تشعر؟ كيف يمكن أن أقف معها لتتجاوز هذه المحنة؟

في ذلك اليوم أنهيت طعامي سريعا وأخبرت أمي أن نوال مريضة وسوف أذهب لزيارتها، خرجتُ، وصلتُ إلى منزلها، فتحت لي والدتها، وهي بالطبع تعرفني، رحبت بي وسمحت لي بالمرور إلى حجرة نوال وهي تشير بيدها

بمعنى ماذا حدث؟ فتحت الباب فوجدت نوال متلحفة غطاءها ولا يظهر منها شيئا، فبادرت مستعينة بكلماتها قبل بضعة أسابيع فقط:

- إذن أنتِ لا تزالين على قيد الحياة، لقد توقعت أنكِ رحلتي عن عالمنا. أين أنتِ؟ لقد اتصلت بك أكثر من مرة وأرسلت لكِ كذا رسالة، ماذا حدث؟

جاء صوتها من تحت الأغطية:

- من قال إني لا أزال على قيد الحياة؟ لقد رحلت يا خولة، ألم تشعري بهذا؟

فضحكت مفتعلة، بساطة ما حدث وقلت:

- هل الدار آمن لنتحدث؟

أخرجت رأسها وقالت:

- لا أريد أن نتحدث، ماذا ستقولين لي؟ تقبّلي المكتوب؟ أنا دائما متقبلة للمكتوب وراضية، أليس من حقي على الأقل أن أترك لنفسي مساحة للحزن.

هالني انتفاخ عيناها وشحوب وجهها وشعرت أن ادعاء بساطة ما حدث فكرة غير مناسبة، فقلت:

- نوال انتبهي فشكلكِ لا يوحي أنكِ بخير! ستكونين مضطرة لتبرير الشكل الذي أنتِ عليه، لقد ظل سركِ بيننا فلما سنكشفه الآن!

نهضت بسرعة تلقي نظرة على نفسها في المرآة، وقررت أن نخرج حتى يخف تورم عينيها، فالوقت ما زال مبكرا، خرجنا وركبنا الحافلة إلى حديقة السبعين، وكانت حديقة كبيرة ومنسقة وبها ممرات مناسبة للمشي، مشينا فيها وقتا طويلا، لم نتحدث كثيرا ولم نتطرق لرحيل الدكتور، ثم اشترينا شطائر الجبن وجلسنا على العشب الأخضر بعيد عن تجمع الأسر التي تجلس هنا وهناك مع الأطفال وكثير من المأكولات والقهوة والشاي، وقررتُ أن أبدأ الحديث:

- نوال، علاقتكِ بالدكتور مثل علاقة بعض الفتيات بالفنانين، يحتفظن بصورهم ويتابعن أخبارهم، ولا يحلمن بأي لقاء أو مستقبل معهم، والأهم أنهن يعيشن حياة طبيعية ويسمحن لأنفسهن بالحب والزواج وتكوين أسرة وتظل تلك الصور مجرد ذكرى لفترة المراهقة.

لم تعترض ولم تتحدث، فاستغليت الفرصة وأكملت حديثي:

- لقد ظلمتِ نفسكِ، وأغلقتِ قلبكِ أمام من قد يكون حاول أن يطرق بابكِ، ومن أجل ماذا؟ أنتِ تعلمين لا مستقبل لهذا الشعور، وإذا تمسكتِ به فستجدين نفسك وحيدة بينما يمضي في حياته جاهلا كل شيء عنكِ.

مستمرة في صمتها ولم تعترض فمسكت يديها وقلت لها:

- إن الله يريد لك الخير، فرحيل الدكتور فرصة لتنظري للحياة نظرة مختلفة بعيدا عن سيطرة شخصيته وتحكم شعورِكِ بكِ.

وأخيرا تحدثت:

- لقد قررت ترك البنك، لا يمكن أن أستمر فيه، وخاصة أني علمت أن الرئيس الجديد سيكون لديه مديرا للمكتب، ولكني قد أؤجل هذا لبعض الوقت؛ لأنه طلب مني مساعدة مدير المكتب الجديد ليفهم طبيعة العمل ويلم بمواضيع رئيس البنك، لذا لن أرفض له آخر طلب، كما أني لم أخبره عن قراري ولا أريده أن يعرف.

سررت بهذا التأجيل:

- جيد! وحتى لا تلفتي نظر المتصيدين للإشاعات بربط مغادرتكِ للبنك بترك الدكتور له في نفس الوقت.

وهكذا شعرت أن مشوارنا كان مفيدا، وأن نوال سوف تفكر بكلامي، ومن الجيد أنها لن تتسرع وتترك البنك حتى تتمكن من رؤية الأمور بعقلانية أكثر.

مرت الأيام برتابة كبيرة، ألقت مغادرة رئيس البنك ظلالا علينا كلنا، فقد كان ذا شخصية محبوبة، وكان يمد يد المساعدة لكل من يحتاجها، ويقدم هدايا مالية للمقبلين على الزواج، ولولادة طفل جديد. وترقبنا جميعا بقلق قدوم الرئيس الجديد الذي كان أحد الشخصيات الاقتصادية المرموقة.

مر الشهر المحدد للدكتور وقضت نوال تلك الأيام بطريقة أو أخرى، مما زاد الأمور سوءا أن لقاءاتها مع الدكتور زادت نتيجة العمل المكثف. وقبل أسبوع من مغادرة الدكتور مراد، حضر مدير مكتب الرئيس الجديد وتم التعارف بينه وبين نوال من قبل الدكتور مراد والذي طلب منها التعاون معه لأقصى درجة.

عندما شاهدت من بعيد مدير المكتب والذي يدعى كريم، وجدت شابا قد يكون تجاوز الثلاثين بقليل، لطيف الملامح. فكرتُ بأمل هل سلم الدكتور نوال لنصيبها؟ أبهجتني الفكرة وصممت على التأكد إذا ما كان هذا الشاب عازب فيجب أن أخلق فرصا أفضل للتعارف بينه وبين نوال. غادرنا البنك نهاية اليوم، وشاهدنا الموظف الجديد وهو يغادر بسيارة جميلة، فقلت لنوال:

- كيف يبدو كريم؟

قالت وقد أخفت وجهها بالنقاب:

- ذكي تعلم المطلوب بسرعة، لا أعتقد أني سأبذل جهدا معه.

هالني الخبر:

- ماذا؟! يجب أن تكوني مدربة جيدة لا تقدمي كل شيء في جلسة واحدة.

ضحكت:

- وما هي تلك المعلومات التي يود معرفتها، لقد أنهينا كل شيء اليوم ولا أدري إذا كان بحاجة للقدوم غدا أو بالأصح لأحضر أنا.

صعدنا الحافلة وأنا أفكر كيف أخلق الفرصة ليطول تعارف نوال معه قبل أن تقرر مغادرة البنك، إذا أصرت على ذلك.

وفي اليوم التالي وصلنا إلى البنك ووجدت كريم كان قد وصل أيضا وجلس أمام مكتب نوال ينتظرها، دهشت نوال وقالت:

- لن أخلع النقاب أمامه، لماذا جاء مبكرا؟!

ذهبتْ إلى الحمام لخلع النقاب وذهبتُ إلى كريم مرحبة به وعرفته بنفسي وأني سكرتارية نائب الرئيس، وأنه سيكون بيننا عمل مشترك، رحب بي وبالعمل معي، ووجدت أمامي شابا في منتهى الخلق واللطف، فقلت له:

- يجب أن تستغل وجود نوال لأنها قد تترك العمل.

فسأل بدهشة:

- لماذا؟
- لتبحث عن فرصة أخرى.
- ولكن هذا البنك من أفضل أماكن العمل، أنا مسرور لانتقالي إلى هنا.
- ربما اعتقدتْ أنه بوجودك لن يكون هناك حاجة لها.
- بالعكس! الدكتور عبد الله لديه مشاغل كثيرة عليّ متابعتها، ولذلك العمل الذي يخص البنك ستكون بالغالب هي المسؤولة المباشرة عنه.
- حقا! إذن يمكنك أن تبلغها بهذا.

استأذنت قبل أن يرد وقبل أن تقترب نوال، وتجلس على مكتبها وهي تنظر إليّ نظرة استفسار، فودعت كريم:

- مرحبا بك في البنك.

شعرت أني أنجزت إنجازا كبيرا، وانتظرت النتائج بصبر وتأنٍ. كان كريم – الموظف الجديد– محور حديثنا وقت راحة الفطور، فعرفت مما تم تجميعه

من معلومات من قِبَل الموظفات أنه خريج إدارة من جامعة صنعاء، ويعمل مع الدكتور عبد الله منذ تخرجه، وأنه أحد أقاربه من جانب زوجته، وتأكدت أنه غير متزوج، وهذا هو المهم بالنسبة لي، وكما يبدو أيضا بالنسبة للزميلات العازبات!

مر الأسبوع الأخير لوجود الدكتور مراد، وتم عمل حفل توديع له في إحدى قاعات البنك المخصصة للاحتفالات الداخلية وللاجتماعات الكبيرة، التقطنا الصور الجماعية معه، شكر الدكتور مراد الجميع وخص بالشكر الكثير نائبته الدكتورة جليلة وسكرتاريته نوال، وهكذا طوى البنك صفحة الدكتور مراد متمنين له النجاح في عمله الجديد.

*****

جاء الرئيس الجديد، لم أصادفه كثيرا ولم أتعامل معه شخصيا، فلم يكن يحضر يوميا إلى البنك، وتم ترتيب مكتب في الغرفة الملاصقة لمكتب رئيس البنك، كانت مخصصة سابقا لآلة الطباعة والتصوير. ولم تترك نوال العمل ولم تتطرق لهذه الفكرة على أي حال، ومرت الأيام هادئة وكان تعامل نوال في الغالب مع كريم أكثر من تعاملها مع الرئيس الجديد والذي كان مختلفا عن الدكتور مراد، أكبر سنا وأكثر انشغالا عن أمور البنك.

وذات يوم جمعة جاءت نوال إلى منزلي صباحا وطلبت مني أن نخرج للمشي في الحارة، خرجنا وسرنا حتى أطراف الحارة حيث كانت هناك بعض

الأرضيات المسورة بأسوار قصيرة لحجزها، سحبتني إلى إحداها وأخرجت من حقيبتها الملف الأسود ذا الوردة، وعلبة كبريت، وقالت:

- لم يعد هناك أمان على هذا الملف.

وبدأت تشعل أول صورة وأسقطتها إلى الأرض وبدأت تضع بقية الصور وقصاصات الأشعار واحدة تلو الأخرى والنار تلتهم ما يسقط عليها وتزداد اشتعالا، راقبنا النار وهي تلتهم تلك القصة وتلك المشاعر وتلك المواقف، حتى غدت رمادا، لم نتحدث أثناء عملية حرق الماضي، كما أسمتها نوال، احتراما للحدث واحتراما للدكتور مراد الذي نحرق صوره دون أن يكون له ذنبا، وعندما أصبحت تلك النار رمادا تطاير بعضا منه فودعتها نوال بإشارة من يدها، سألتها:

- والملف ألن تحرقيه؟

فتحتْ الملف فوجدتُ تلك الصورة الجماعية لنا في حفل توديع الدكتور مراد، وقالت:

- لا ضير من بقائه طالما انه يحتوي على الصورة جماعية التي لا تشير إلى أي قصة.

وعدنا أدراجنا،، كانت حزينة وساهمة وكنت سعيدة أنها تخطت تلك التجربة والتي حجبت عنها كل شيء واحتلت حياتها وتفكيرها بشكل كامل.

(10) عرس وسفر

مرت فترة ما قبل العرس جميلة، هادئة وزاد حبي لنادر وشعرت بحبه لي من كلامه ومن أفعاله ووجوده الدائم معي. تعرفت على شقيقاته أكثر وعلمت من نهى –شقيقته الصغرى– أن نادية تمر بصراع مع أهلها لأنها حصلت على منحة مقدمة لأساتذة جامعة صنعاء لدراسة الماجستير والدكتوراه في بريطانيا، ويرفض أهلها ذلك رفضا قاطعا، وقد استعد أباها لتمويل دراستها في مصر أو الأردن أو أن تنتظر لحين فتح برنامج الدراسات العليا في جامعة صنعاء، ولكنها رفضت وبشدة، ومازال الصراع دائر بين الاب وإصرار ابنته.

وبدأت أستعد للعرس، استأجر نادر شقة جميلة حديثة في نفس حي منزل أهله، لم أعترض فبالتأكيد لن أجد شقة بهذا الجمال في حي منزلنا، حددت أنا ونادر ميزانية تأثيث منزلنا الجديد، ودفع لي المبلغ وفوضني في كل ما يخص التأثيث، وهكذا بدأت أجهز نفسي للحياة الجديدة وأجهز الشقة وكانت أمي تساعدني في أغلب مشاويري، كانت نوال أيضا خير مساعد لي وكذلك سهام والتي أصبح لها طفلا، ولكنها كانت تشاركني مشاويري وتضع ابنها في رعاية والدتها. شعرت ببهجة أمي وهي تشاركني رأيها في كل ما أختاره من أثاث واحتياجات للمنزل وقالت لي أنها سعيدة بأن تعيش معي ما لم يتاح لها ولم يتسنَ لها أن تحلم به، لم تقم في يوم ما في حياتها بتأثيث شقة بأثاث جديد، لم تخرج في حياتها لانتقاء أشياء جديدة وأنيقة، كانت تشاركني بهجتي وتعيشها في نفس الوقت. كما اشتريت ملابس جديدة

متنوعة وحجابات وكثير من احتياجات الحياة الجديدة والتي لأول مرة أحصل عليها دون أن أدفع ثمنها بنفسي ودون أن أقلق كم سيتبقى لدي نقود.

ومما أسعدني أن نادرا سجلني في إحدى الكليات لدراسة الماجستير ودفع رسوم أول عام والذي قررت أن يكون في نظم المعلومات كما كانت الأستاذة سامية تدرس، وفقا للخطة التي رسمها نادر لي، ولكني لم أقرر بخصوص ترك البنك.

كان يوم عرسي يوما سعيدا جدا حضر خالي وأخي وأسرته من الحديدة ولم يحضر خالد رغم أننا وجهنا له دعوة، ولكنه اكتفا بمكالمة أخذت أمي فيها حيزا كبيرا تخلله بكاء مر منها واعتذار باهت منه.

تم العرس، كان جميلا ورائعا، وبدت أسرة نادر متفهمة لإمكانياتنا، فترتب الحفل ضمن إمكانية الجميع، استأجرت فستان العرس وكان رائعا جدا، وصففت شعري في محل تصفيف الشعر لأول مرة في حياتي، وحضر العرس من طرفنا كل من نعرف وخاصة موظفات البنك وعلى رأسهم الدكتورة جليلة، وحضرن من طرف نادر والدته وشقيقاته وبعض من قريباته.

كان يوما مبهجا سعدت فيه وتأملته من مكاني على منصة العرس وتذكرت بداياتي وكيف سارت الأمور فشعرت بكثير من الرضا والامتنان. نظرت إلى ساحة الرقص فوجدت الكل يرقص، صديقاتي، أمي، خالتي، حتى الدكتورة جليلة وسامية تم سحبهن إجبارا للمشاركة في تلك البهجة التي أحاطت المكان. عاد إلى خيالي هدير السيارة الصاعدة إلى صنعاء، رحلات البحث

عن عمل، حارس البنك، نوال وصديقاتها، الدكتورة جليلة، وأخيرا نادر، ذلك الذي قدم من أطراف العالم ليسحبني إلى حياة لم أتوقع أن تكون من نصيبي عندما تركت مدينتي الغافية على شاطئ البحر.

*****

ذهبنا في شهر عسل قصير لمدة أسبوعين إلى مصر، وكنت منتظرة تلك السفرية لكثرة ما سمعت عن مصر، كان هذا أول سفر لي خارج اليمن وأول مرة يكون لدي جواز سفر، وأول مرة أجد نفسي أحصل على الكثير ولا أدفع شيئا، لأول مرة يكون بجانبي رجلا يمكن لي الاعتماد عليه، شعور رائع لم أجربه من قبل.

قضينا أسبوعا في القاهرة في أحد الفنادق الجميلة طاف بي نادر أهم معالم القاهرة فزرنا الأهرامات والتي قد كنت قرأت عنها كثيرا، والبرج وخان الخليلي، ولكن أكثر ما أذهلني نهر النيل الذي يسير متدفقا قاطعا البلد بسلاسة وجمال، أذهلني جماله في كل الأوقات، صباحا ومساء ووقت الغروب وحتى ليلا، ركبنا إحدى المراكب وقت الغروب فسار بنا المركب متمهلا، تمر من حولنا المراكب الأخرى فيلوّح لنا ركابها ونلوّح لهم ببهجة وسعادة، حتى غشى الليل من حولنا وأضيئت الأضواء الرائعة من العمارات على جانبيه ومن المراكب وصدعت أغاني جميلة، وشعرت أني أعيش حياة تشبه الخيال، أحببت نادر أكثر وأكثر، وأحببت حديثه عن مستقبلنا وكيف سنخطط لحياتنا معا وكيف سنتعاون في هذه الحياة حتى نصبح النموذج الأروع للأسرة

السعيدة. ذهبنا في الأسبوع التالي إلى مصيف يدعى "الغردقة"، فوجدت تلك الفنادق التي لم أصادفها إلا في الأفلام التي كنت أشاهدها أحيانا، وشواطئ رائعة لم تمر حتى في خيالي. تعجبت كيف حولوا شواطئهم إلى عالم بهجة وسعادة، وكيف استطاعوا جلب البشر من أطراف العالم، عرب وأجانب، فقط من أجل هذه الشواطئ وهذه الفنادق، وكيف حولوا مدينتهم إلى مزار تصل إليه الطائرات مباشرة من أرجاء العالم (كما قال لي نادر)، تعجبت من ذلك الفارق الرهيب بين هذه المدينة وبين مدينتي تلك التي لها نفس البحر ونفس الشواطئ ولا يرتادها إلا أهلها، يشاركوها أفراحهم وكثير من أحلامهم وهمومهم! لم يستطع عقلي أن يجد جوابا إلا ما قاله لي نادر ردا على استفساري "إنه الفساد الذي أقصه عليكِ دائما!" ولكني لم أقتنع وظل السؤال يحيرني.

مر الأسبوعان كأجمل ما مر في حياتي، شعرت أني فعلا محظوظة، وأن نادر فعلا شخص يستحق الحسد عليه كما كانت تقول لي أمي، وعدنا إلى اليمن وكلي شوق لبدء حياتنا المشتركة في الشقة الجديدة لتي أستأجرها نادر وأثثناها بأثاث جديد جميل بحب واهتمام.

كانت أيامنا التالية جميلة أكملنا فيها شهر العسل، كنا نقضي الأيام نتنقل لزيارة أماكن كثيرة داخل صنعاء، أماكن لم أكن مهتمة خلال هذه السنوات بزيارتها، ذهبنا إلى دار الحجر وإلى كوكبان وغيرها من معالم مدينة صنعاء

وما يجاورها، حتى أننا زرنا بيت جده في صنعاء القديمة وتحققت أمنيتي بالتعرف على تلك الدير من الداخل، وانتهى الأسبوع الأخير من شهر العسل. وقبل عودتنا إلى العمل طلب مني نادر طلبا غريبا لم أتوقعه، قال إنه لا يفضل أن نعمل في نفس المكان وأن عليّ ترك البنك، لم أفهم ما المشكلة في عملنا سوية في نفس المكان؟ لم أفهم هل يقصد أن أعود لدوامة البحث عن عمل جديد وأعيش دوامة الماضي مرة أخرى؟!! وفكرت لما لا يترك هو البنك؟ فهو جديد فيه وهو مؤهل أكثر مني وأقدر على الحصول على عمل جديد!

شرحت له كم يعني لي هذا البنك الذي اعتبرته ملجأي الأول وبيتي الثاني والذي مكنني العيش بكرامة في هذه المدينة بعد معاناة طويلة، شرحت له أن صديقاتي في البنك أسرة لي وعائلة أني أعول عليهن الكثير. للأسف دار بيننا شجار قصير دون الوصول إلى نتيجة أو اتفاق وظل الموضوع معلق بيننا ولم أحدث أحدا عن هذا الخلاف، الخلاف الأول بيننا. شعرت بضيق وألم بأن يبدأ بيننا الخلاف بعد أول أسبوع من عودتنا من مصر.

*****

تجاهلت كل ذلك وعشت مع نوال فرحتها عندما أخبرتني أن كريم يلمح لها عن ارتياحه لها، كانت مسرورة وسعيدة تلك السعادة المتعلقة بأمل وترقب، قالت لي عندما جلسنا بمفردنا:

- إنه لطيف جدا يا خولة، إن شعوري تجاهه عفوي جدا كأني خلقت من أجله وخلق هو من أجلي. لقد كنت أعيش حالة مراهقة متأخرة عندما أحببت شخصية الدكتور مراد وعشت أتغذى على هذا الإحساس، كان الرجل الوحيد الذي يتحدث معي والذي أقابله وأتعامل معه يوميا، كانت حياتي يا خولة فارغة، درست في المدرسة مع فتيات وكذلك كانت دراستي في الجامعة، ولذا فقد كان نموذج الرجل في حياتي ليس أكثر. ولكن مع كريم شعرت بشعور مختلف، وأحببته بصدق ومن أعماق قلبي، وأغار عليه كثيرا، وفعلا أتمنى أن أقضي معه بقية حياتي.

ثم نظرت إليّ نظرة مطوّلة وقالت:

- شكرا خولة لقد وقفتي معي في أزمتي، ساندتني ولم تتركيني أغرق في حزني، لقد كنتي صادقة عندما قلتي لي أن إعجابي بالدكتور كان مثل الإعجاب بشخصية ممثل سينمائي، بالفعل لقد انبهرت بشخصيته ووسامته وأسرني لطفه وتعامله الودود معي، ولكن كريما شيئا مختلفا وشعورا ملأْ حياتي بهجة حقيقية وشعورا حيا ينبض بكل صدق.

سعدت لفرحة نوال صديقتي المرحة، وسعدت أني وقفت معها وأنها اقتنعت بعدم ترك البنك مما كان سيسبب لها الندم على كل حال، فقد كان البنك مكان عمل جيد، حتى الرواتب فيه أفضل من أماكن عمل كثيرة.

كان نادر يتطرق لطلبه بأن أترك البنك كل حين وآخر، وأحيانا يتحدث عن رغبته هو بترك العمل في البنك، ويدور بيننا نقاش عقيم، ولكنه يُدخل الحزن في قلبي ولم أعرف كيف أتصرف. لم تلاحظ نوال أي من ملامح حزني المبكر بسبب نادر، ولكن الدكتورة جليلة رصدت تغيري بسرعة، وتحدثت معي دون أن تسألني عن السبب. حدثتني أن للزواج مشاكله مع اختلاف ظروف الحياة واختلاف طباع الزوجين، وأن علينا أن نحتفظ بمشاكلنا بيننا إذا كانت صغيرة أن نحاول حلها بالنقاش والتفاهم والتنازل من الطرفين، حدثتني الدكتورة بما لم تحدثني به أمي ونبهتني لأمور كثيرة وقالت لي بوضوح أنها بمثابة الأخت الكبيرة لي وأنها على استعداد لمساعدتي في أي شيء أحتاجه، شكرتها جدا وزاد حرصي على عدم ترك البنك.

ولكن لم تجرِ الرياح بما تشتهيه السفن، حملت بمجرد مرور الثلاثة الشهور الأولى من زواجي، كانت حالتي النفسية سيئة جدا لكثرة شجاري مع نادر تلك الشجارات التي تنتهي دائما إلى لا شيء، كتمت كل مشاكلي عن الجميع أمي وصديقتي نوال بما فيها خبر الحمل، لا أحد يعلم بما أعاني، والكل ما زال ينظر إليّ بحسد، إلى الفتاة الوحيدة من أسرة بسيطة، رزقت بزوج مثل الدكتور نادر.

واصلت الذهاب إلى عملي، وتظاهرت كأن كل شيء على ما يرام، لم أعد أتناول فطوري في المنزل وأبرر لنادر أني سأفطر في البنك، لم أعد أفطر مع الموظفات وأتحجج بأني فطرت في المنزل، كانت رائحة الأكل تقلب

معدتي، فامتنعت عن الأكل، مما زاد من تعبي كثيرا، إلى أن أغمي علي في البنك، ونقلتُ إلى المستشفى ومن ثم إلى منزل أمي، وبارك الكل لي، وطلبت من نادر أن أبقى في منزل أمي بضعة أيام، اهتمت بي أمي. كانت الفترة الأولى من الحمل متعبة جدا، توقفت عن الذهاب للبنك، وطلبت إجازة، وتم تعليق تسجيلي في برنامج الماجستير واسودت الحياة في عيني، عدا ذلك الضوء الخافت القادم من جنيني.

واصل نادر زيارتي كل يوم، وكان يحكي لي بمرارة عن الفوضى في البنك وعن الفساد وعن الظلم، وانتقد الرئيس الجديد للبنك، وعبر عن غضبه ملمحا أنه كان يستحق أن يخلف رئيس البنك السابق، وهكذا شكلت زيارات نادر عبئا إضافيا لي.

عدت إلى بيتي بعد أسبوع وطلب مني نادر التفرغ لنفسي فترة الحمل طالما أني متعَبة، وهكذا كان الأمر، وعادت نوال تهتم بعمل الدكتورة جليلة، مرت الشهور التالية بطيئة، لا يخفف منها إلا زيارات نوال المبهجة وحديثها المطول عن كريم، وزيارات أمي التي أبلغتني أن سيف يقوم بعمله مع قليل من التذمر الذي اعتاد عليه، ولكنه بدأ بالنضوج والشعور بالمسؤولية وقد أصبحت مساهمته المالية ملموسة. شعرت حينها أن الله كافأني بنجاح أخي سيف وأن ما قدمته له قد أنتج أخيرا رجلا يمكن له تحمل المسؤولية، على الأقل مسؤولية نفسه.

حاولت أن أتكيف مع الظروف التي أمر بها وأقنع نفسي أن الكثير من الفتيات يقبعن في البيوت بعد الزواج وأن لا شيء يمكن أن يعد سيئا، خاصة مع اطمئناني على أمور أمي وأخي، ولكن هناك في أعماقي كان يولد قلقا ما لم أستطع معرفة كنهه، وإن كانت الإشارات تظهر واحدة تلو الأخرى.

عاد ذات يوم نادر من العمل ليبلغني أنه ترك العمل في البنك، وقدم لي محاضرة طويلة عن استغلال المميزين والمؤهلين أمثاله، وأضاف أن الحل يكمن في العمل الحر، وأنه من الآن سينطلق في آفاق النجاح ولن يكون موظفا عند أحد، حاولت أن أناقشه فأسكتني قبل أن أتحدث وأخبرني أنه أكثر مني علما وخبرة ولا يحتاج لنصيحتي. سكتُ ولم أنطق بحرف، لا أتفق معه في كل ما قاله، ولكني سكتُ مضطرة. لم أذكره بأن لدينا طفلا قادما، لا لم أقل ذلك، سكتُ، وانتظرتُ التالي. كان يظهر بشخصية جديدة، قلقة، مغرورة وأنانية.

أيضا لم أخبر أحدا بأي شيء، كنت أتبع نصيحة الدكتورة "إذا كانت المشاكل صغيرة فعليّ أن أبقيها بيننا فقط!"، مرت الشهور ونادر يبني مشاريع ويجتمع من زملاء له لا أعرفهم، ويحكي لي كل يوم عن خطة، وكل يوم عن مشروع، وكل يوم حدث تتبعه مشكلة. وهكذا بدأ يقترض النقود من أبيه لدفع الإيجار، وبدأت أبيع بعضا من الذهب الذي حصلت على أغلبه كهدايا عرس من أهل نادر، وبدأت أصرف على منزلي، والتزمت الصمت. كنت أشعر أن

شيئا كبيرا لابد سيحدث، كنت أشعر أن الرياح الخفيفة التي تهب على حياتي ما هي إلا نذير لعاصفة، ولكن أي نوع من العواصف سوف تهب؟ لا أدري! توقفت مشاريع نادر، فسألته مستفسرة عنها، لم يرد! وبدأت معاملته تتصف بالضيق والتذمر وكأنني سبب تعثره. وذات يوم طلب مني أن أساهم أكثر في نفقات البيت، لم أظهر أي اعتراض على ذلك، كنت أشعر أن عليّ مساعدته في هذه المرحلة من تعثره، وبدأت أخصص مبلغا أكبر لمصاريف واحتياجات البيت. ولكن لم يكن هذا كافيا، جاء طالبا مني قرضا لبدء مشروع آخر وأنه سيعيد لي المبلغ مضاعفا عندما ينجح المشروع، لا أعلم مدى توقعه لحجم القرض الذي سأقرضه ولا أعلم عن مدى توقعاته عن مدخراتي الضئيلة أساسا! أعطيته خمسة آلاف، فنظر إليّ غاضبا وصرخ لأول مرة عليّ بصوت عالٍ:

- ماذا!! هل أتسول منكِ؟ هل تبخلين عليَ بقليل من مدخراتكِ؟!

وقبل أن أوضح له –ما يبدو واضحا له أساسا– بأني لا أدخر وأن راتبي مقسم بين إيجار منزل أمي واحتياجات منزلنا، أمسك بالنقود ومزقها ورماها عليّ وسط ذهولي ورعبي من منظر خمسة آلاف ذهبت أدراج الرياح، خمسة آلاف كانت تعني لي الكثير. وخرج دون أن يضيف حرفا واحدا، وجلست عاجزة عن البكاء، وعاجزة عن الحركة وحولي قصاصات النقود ترثي لحالي. مرت الأيام التالية هادئة دون أن نتطرق لتلك الحادثة، بدا خجلا من نفسه، يعاملني جيدا ويعجز عن الاعتذار، لم أتطرق لذلك الموقف ولم أحاول استعادته في مخيلتي، ووضعته في خانة النسيان، محاولة أن أغفر له كل

شيء، وأعد نفسي بأنها غيمة ستمر وسنستعيد أحلامنا التي بنيناها معا وتعاهدنا على تحقيقها.

إلى أن سمعته يتحدث في الهاتف حديثا طويلا دون أن أفهم شيئا، لقد كان يتحدث بلغة أجنبية توقعت أنها لغة رومانية، طال الحديث وتجاوز الساعة، وأصبح الأمر يتكرر، فشعرت أن في الأمر قصة ويجب أن أعرفها، وهكذا بدأت أركز على الأمر على الرغم من تعبي وقرب موعد الولادة، انتظرت له وهو يتجهز للخروج وسحبت الهاتف من جيبه وانتظرته حتى خرج، فتحت الهاتف فوجدت أسماء كثيرة لا أعرفها، فتحت الرسائل الأخيرة فظهرت رسالة محملة بصور كثيرة، وكانت تلك هي العاصفة المنتظرة، فتحت الصور فكانت بكل بساطة لنادر في رومانيا، ولكن ليس نادر لوحده، كان مع امرأة بعينها، وليس مع امرأة بعينها فقط، ولكن مع طفلة صغيرة في عامها الأول ربما، ثم صور لتلك المرأة لوحدها دون نادر مع تلك الطفلة وقد قاربت الخمس سنوات من عمرها، صدمت ونظرت إلى الرسائل، كانت مكتوبة بلغة لا أعرفها، جمدت مكاني لا أدري كم مر من الوقت ولكني فزعت على صوت نادر الذي عاد للبحث عن هاتفه، سمعته يقول:

- لكل شيء تفسير، دعيني أفسر لكِ كل شيء ومن الجيد أنكِ قد عرفتي بذلك، آن الأوان ليكون كل شيء واضح.

جلس على الأرض حيث كنت جالسة وضمني إليه وهو يكرر:

- كل شيء له تفسير.

لا أدري ما حدث بعد ذلك، ولكني أفقت وأنا في مكان آخر، كل شيء حولي أبيض، هل رحلت؟ هل أصبحت في عالم آخر؟ ولكن صوت أمي أعادني إلى لعالم الذي توقعت أني تركته، نظرت حولي نعم أمي ونادر وأم نادر وأخي سيف، سكتُ رغم تكرار سؤال أمي عما حدث، سكت وقررت أن أسكت من أجل ذلك الذي لم ير النور بعد وكان نادر ساكتا أيضا. دار الحوار حولي إشفاقا ورحمة "إنها بالتأكيد من تبعات الحمل"! ويا ليته كان كذلك، عادت صورة المرأة والطفلة تحتل عقلي، أي قصة يمكن أن تبرر ذلك؟ أي تفسير يمكن أن يمحو ذلك؟ قضيت ذلك اليوم في المشفى على أن أغادره إلى منزل أمي، ولكني أصررت على العودة إلى منزلي، ووسط دهشة نادر قام بمساعدتي على النهوض وغادرنا وأمي تنظر إليّ بشك، وكيف لا تشك وهي تملك قلب الأم، كما سأمتلك قريبا، قلب الأم التي تتمنى لأبنائها الأفضل والتي تتحمل كل شيء من أجلهم حتى قبل أن تراهم.

*****

وهكذا عدت إلى المنزل وأكملنا ما كان نادر يود قوله، أجبرته على التفسير، رغم إصراره بأن أرتاح إلى يوم الغد، فقلت له بأني قد ارتحت في المشفى، فرضخ وبدأ حديثه:

- لقد عشت في رومانيا سنوات كثيرة، وقابلت الكثيرات وعندما تعرفت على ليندا، شعرت أنها متميزة عن سابقاتها تعلقت بها، ولكنه ليس حبا، صدقيني ليس حبا، كأنه يهمني هذا التأكيد، أقنعتني بالزواج

وأني سأحصل على إقامة دائمة، وافقتُ خاصة بعد أن قالت لي أن علاقتنا ستثمر طفلا، وفعلا جاءت ابنتي تالين.

سكتْ ونظر إليّ ليتأكد أني بخير، فقلت له:

- أكمل!

عاد إلى قصته:

- لا شيء، مر العام ونحن نعيش معا، ولكن أبي أصر أن أعود وأخبرني أنه تقاعد ويرغب بوجودي مع أخي إلى جانبه فقد كان يخشى أن تمر السنوات ويموت دون أن يراني، فبدأت المشاكل بيننا ورفضت ليندا القدوم معي، وأخذت ابنتي وهربت إلى مدينة أهلها، لم أفكر كثيرا ورحلت عائدا إلى اليمن.

ضحكت بمرارة وقلت:

- بعد سنة من الزواج! لم أكن محظوظة مثلها، لم أحظ حتى بسنة واحدة سعيدة في هذا الزواج.

وبعد فترة صمت طويلة قلت له:

- دعني أكمل حملي وولادتي لنرى بعدها ماذا يمكن أن نعمل.

وذهبت إلى الحجرة التي خصصناها للقادم الصغير ووضعت فراشا على الأرض واستلقيت وحاولت أن أنام، ولكني كنت أستعيد حديثنا في ذلك اللقاء بعد الخطوبة، تذكرت كيف قال بأني المرأة الوحيدة التي ارتقت العلاقة معها إلى مشروع زواج، لقد كان لقاء صريحا، لما لم يخبرني يومها عن قصته؟

لما لم يعطني الحق باتخاذ قراري مع علمي بكل هذه الأحداث؟ متزوج!! وما زال متزوجا حتى الآن!! ولديه طفلة!! كيف استطاع أن يخفي كل تلك الحقائق الكبيرة عني!! وأخيرا نمت أو هكذا خيل لي وعشت كوابيسي وحدي.

مر الشهر الأخير من الحمل متعبا جدا، كانت علاقتي بنادر تأخذ طابعا رسميا، ولم أعد أرحب بزيارات أمي ولا بزيارات نوال، وقد شعرتا بأن شيئا ما يحدث، ربما رجحتا أن يكون الحمل هو السبب، فقد كان منذ البداية متعبا. وواصلت على هذا النهج حتى كرهت نفسي وفكرت كثيرا بماذا أخطأت حتى أحصل على هذا العقاب؟ ولم أجد الرد! كانت حياتي بسيطة، عفوية، ولم يكن لي متطلبات إلا العمل والدراسة وتحمل مسؤولية أمي وأخي، بماذا أخطأت دون أن أدري؟ هل كانت حصتي من الفرح أكبر من أن أستحقها، لا أدري؟!

جاء صادق، فأشرقت جوانب نفسي المظلمة، جاء صادق فنذرت نفسي له من أول لحظة، مسحت كل الأسماء التي فكرنا بها وكل الأسماء التي اقترحها الآخرون من حولنا، وأصررت على اسم صادق، علني أجد الصدق في هذه الحياة.

أصرت أمي على خروجي من المشفى بعد الولادة إلى منزلها دون أن تقبل أي رفض، وهكذا مر أسبوعان، كان نادر يزورني، ولكن تعاملنا كان واضحا

لأمي ولأخي، سألتني أمي فقلت لها أن الأمور طيبة ولا داعي للقلق، فسكتتْ.

عدت إلى منزلي وبدأت مسؤوليتي الجديدة تأخذ كل وقتي وتفكيري، وتنسيني كل همومي وكل العالم الخارجي، ولكن كما يبدو أن العالم الخارجي لم ينساني، فبعد مرور ثلاثة أشهر، كان وضع نادر يبدو جليا، لا عمل له، تنقل في بعض البنوك، فبقي في بعضها شهرين وفي آخر ثلاثة أشهر، تاركا العمل دائما بحجة الفوضى والفساد الذي لا يتحمله، أخبرته أنه يمكننا أن ننتقل لشقة أرخص إيجارا، ويمكن أن نقلل من مصاريفنا، ويمكن أن أعود للعمل (كنت في إجازة مفتوحة)، وأن أساهم بمبلغ أكبر إلى أن يجد عملا يقتنع به. ولكنه لم يعر كلامي أي اهتمام وكان دائم التفكير مع نفسه متناسيا أنه قال لي بأننا كيان واحد.

*****

وأخيرا أتت العاصفة الحقيقة وتبين لي أن ما سبق كانت مجرد زوابع تعصف بي وتتركني سريعا، جاءت العاصفة على شكل قرار خطير اتخذه نادر، جاء ذات يوم قائلا:

- خولة، لقد قررت أن أفضل وضع لنا هو الانتقال إلى منزل والدي، فليس من الطبيعي أن يدفع لنا أبي الإيجار، كما أنك ستحظين برعاية أمي إذا رغبتي بالعودة إلى لعمل.

لم أسكت هذه المرة، غضبت وصرخت وطلبت منه أن يعيد لي حياتي السابقة قبل أن أتعرف عليه، طلبت منه أن يعيدني إلى قبل عامين فقط لأعود خولة السعيدة، صرخت ولم أهتم ببكاء صادق، بكيت وذرفت الدموع التي كنت أحتجزها منذ ان كنت حامل حتى لا تؤثر على جنيني -كما قرأت-، تجادلنا كما لم نتجادل من قبل، وببساطة ترك المنزل طالبا مني أن أجمع حاجاتي حتى ننتقل إلى منزل أبيه، ضاربا بكل احتجاجاتي عرض الحائط، فافترشت الأرض وجلست أبكي دون توقف.

لم تزعجني فكرة انتقالنا إلى منزل أبيه، فهم أسرة طيبة ومتفهمة، ولكني انزعجت مما أوصلنا إليه نادر بإهماله واستهتاره بكل فرص العمل المتاحة له، وانزعجت من الشخصية المتعالية التي تلبسها وأصبح يرى أن كل فرصة العمل المتاحة لا ترتقي لمؤهلاته وقدراته التي كان يجدها متميزة وعالية! هذه الشخصية التي لم تدرك وجود ابن ومستقبله، وهو الآن أهم مسؤولياتنا، كنت أشعر أن فكرة انتقالنا إلى منزل والده بداية للتخلي.

عاد نادر بعد ساعات وبدأ يرفع حاجاته بكل بساطة وهو صامت تماما، فبدأت أجمع حاجاتي وحاجات صادق من حجرته الصغيرة والتي لم يستمتع بها إلا وقتاً بسيطاً، ومن حسن الحظ أنه لا يدرك ذلك، ولكن هل فعلا لا يدرك ما يحدث؟

وفي صباح اليوم التالي قال نادر:

- سوف يأتي رجال لأخذ الأثاث، ارتأ لي أننا لن نحتاجه بعد الآن؛ الأفضل أن نستفيد من النقود عند بيعه.

ذهلت لقطعه كل حبال العودة، ما الذي يحدث؟! كيف يقرر كل هذه القرارات دون أن يشركني، أين الأسرة السعيدة؟ أين النموذج الذي كان سيبهر العالم من حولنا؟ لبست عبايتي وحجابي وتركته يخرج لانتظار الرجال، واتصلت بأخي ليأخذني إلى بيت أهلي، كان قد اشترى سيارة صغيرة، وقبل أن يسأل عن السبب أقفلت الهاتف، وجلست أراقب قطع الأثاث التي اشتريتها بحرص كبير، وهي ترحل قطعة تلو قطعة، أراقب سرير صادق الجديد الذي لم ينم عليه إلا وقتا قصيرا، أراقب كل أحلامي وهي تغادر الشقة واحدة تلو الأخرى، تركت نادرا مشغولا بمتابعة بيع الأثاث وخرجت حاملة أغراض صادق وأغراضي الأساسية ووضعت حقائبي في إحدى الزوايا وخرجت وبحضني صادق أنتظر أخي، وهكذا رحلت وأرسلت رسالة إلى هاتف نادر ليرسل لي حقائبي إلى منزل أمي وليس إلى منزل والده لأني أرغب بفترة أجمع فيها شتات تفكيري.

وصلت إلى المنزل وتبين لي أنهم قد شعروا بما سيحدث وقد عادت لي الحجرة الأولى الأكبر بقليل، حتى أستطيع وضع سرير صادق. طلبت من أمي عدم سؤالي على الأقل لبضعة أيام وفعلا تبلورت الأمور بسرعة، لم يلحق بي نادر إلى بيت أمي، ولكنه أرسل لي حقائبي، وجاء بعد ثلاث أيام لزيارتي

وهو أشعث الشعر والشارب والذقن ليثبت لي مدى إهماله لنفسه، وقال ببساطة:

- أعتذر خولة لقد أخطأت! لقد أخطأت بحقكِ وبحق نفسي، لم يكن عليّ العودة إلى اليمن.

نظرت إليه، لم يكن عليه العودة إلى اليمن؟! ماذا يعني هذا؟! وما هو جديده هذه المرة؟ ماذا يريد أن يحطم أكثر مما حطم؟ نظرت إليه سائلة:

- ماذا تقصد؟

طبع قبلة على جبين صادق وأخرى على جبيني وقال:

- سوف أعود إلى رومانيا، سأرتب أموري هناك، وسوف أحضركِ أنتِ وصادق وسنبدأ حياة طبيعية هناك، الحياة هنا ليست حياة، لا تحزني خولة سوف أعوضكِ عن كل شيء فقط انتظريني.

ثم همس:

- سوف أطلق ليندا، أعدك لن أستدعيكِ إلا بعد أن أطلقها وهذا سيكون أول عمل أقوم به فور وصولي.

وخرج ببساطة، فعرفت أن قراري بالعودة إلى منزل أمي لم يكن خاطئا، فها هو نادر يأخذ مسيرة أبي ويرحل، ولكنه رحل مبكرا جدا جدا، استدعيت أمي وأخي وقصصت عليهم كل قصصي التي احتجزتها احتراما لخصوصيات الزوج والأسرة كما فهمتني الدكتورة، قصصت عليهم كل تلك الصدمات والعواصف، ولكني قصصتها وكأنها قصة قرأتها في كتابا ما.

تأثر سيف واحتار فيما عليه القول لمواساتي، بينما نظرت إليّ أمي وقالت كأنها تسترجع ما نتلقاه من عاداتنا وتقاليدنا:

- ولكن يا ابنتي لا أعتقد أنه أساء إليكِ، لم يضربكِ، لم يهينكِ، لم يقصر في مسؤولياته!!

أبعدت نظراتها عني وأكملت:

- النساء يتحملن الكثير من الضرب والإهانة ولا يتركن بيوتهن، لم يكن عليكِ ترك بيتكِ.

نظرت إليها طويلا مستغربة وقلت:

- ولكن يا أمي هل كان من الضروري أن يضربني لكي أعرف أن الحياة معه انتهت، لقد كذب عليّ عندما لم يخبرني بزواجه الذي مازال مستمرا ولا عن ابنته، ترك عمله في البنك ولم يعِ مسؤولياته الجديدة كزوج وأب، وعدني بوعود كثيرة ولم يفِ بأي منها، تغيرت معاملته معي وأصبح شخصا آخرا غير الذي عرفت وأحببت، ومع ذلك يا أمي رضيت، سكت، تحملت، أخفيت أسرار بيتي حتى عنكِ، وها هي النتيجة واضحة، تركنا، ببساطة تخلى عنا، فلما أكون أنا المسؤولة؟!

شعرت بدموع المذلة والقهر تنزل من عيني وأكملت:

- لما علينا دائما تحمل مسؤولية فشل العلاقة الزوجية؟ لما علينا تحمل كل أضرارها؟ هل أنتِ مسؤولة يا أمي عن رحيل أبي؟ هل ذنبكِ

أنك أنجبتنا؟ هل أنتِ مسؤولة عن معاناتنا بغياب أبي؟ لما عليهم ارتكاب الأخطاء وعلينا تحمل إثمها؟ لما يجب أن نتحمل الضرب والإهانة؟ لما لا نحظى بحياة بسيطة، هانئة، نتشارك المسؤوليات وصعوبات الحياة، ولكن بقلب واحد.

*****

تركتهم وعدت إلى حجرتي، وها أنا كما بدأت قبل سبع سنوات في حجرتي الصغيرة، فكيف يمكن أن تكون تلك القصة قصتي؟ ولكن مع صوت بكاء صادق عرفت أنها قصتي ووحدي مرة أخرى مسؤولة عنها، تنهدت وشعرت براحة، فقد اتضحت الصورة ولا يوجد عواصف أترقبها، هكذا اتضحت الأمور، علاقة فاشلة وطفل صغير سيكبر دون أب مثل أمه، ليس نحن من يرسم أقدارنا، ليس نحن من نخطط لهذا الأمر أو ذاك، ولكن رغم ذلك علينا نحن أن نتحمل نتائج تلك الأقدار. ها أنا عدت إلى حجرتي الصغيرة، ولدي مسؤولية جديدة، جعلتني أفكر ما أسهل تلك المسؤوليات السابقة، مسؤولية أمي والتي تحتاج لقليل من الأمان وتقدم ليّ كل ما تستطيع لراحتي، مسؤولية أخي والذي احتاج لمال أكثر ونصائح وشجار، ولكنه شق طريقه وأصبح رجلا خلال سنوات قليلة، أما الآن فلدي مسؤولية صادق الذي يحتاج للكثير من المال وللكثير من الوقت وللكثير من الجهد ولعمر بأكمله حتى يصبح رجلا يعتمد على نفسه، وهي مسؤوليتي وحدي وعليّ أن أفكر جيدا.

مرت الأيام التالية بنقاشات كثيرة اشترك فيها الجميع أمي وأخي سيف، ووالدي نادر وشقيقه، كل النقاش كان يصب لصالحي، ولكن القرار كان بيد نادر فقط، هو من قرر السفر واعدا بإلحاقي به بأقرب وقت، والقرار بيد نادر فقط برفضه طلب الطلاق، مؤكدا أنه يحبني وأننا سنعود للعيش مع بعض وسنقوم بتربية ابننا صادق معا.

(11) رحيل جديد

وهكذا سافر نادر، سافر تاركا لي وسط حيرة اتسأل من المخطئ؟ سافر ورفض تطليقي، ولم يحزنني الأمر آنذاك، ولم يشغل تفكيري، فلم يعد يعني لي هذا الزواج شيئا، ولا يشكل حصول الطلاق من عدمه فرقا معي آنذاك أيضا، فلم ولن أرغب بتكرار التجربة على أي حال، سافر نادر، وضعني في بداية طريق وحدي سأسير فيه من أجل ابننا، وهكذا ببساطة طويت صفحة نادر كحلم أو كابوس أو لا أدري ماذا يسمى؟ انعزلت فترة داخل شقتنا البسيطة بين جدران غرفتي القديمة – تلك الذي أخذها أخي سابقا وعادت لي– انعزلت فترة طويلة، العزلة تلك الزاوية التي تبعدنا عن البشر وتبقينا مع أنفسنا فقط، لا مجال للفرار، لا مجال للتعذر بالانشغال، لا أحد هنا إلا أنا ونفسي، العزلة هي تلك الغيمة التي ترفعنا عن ضجيج واضطراب البشر من حولنا، تسمح لنا بسكون وهدوء للحوار مع النفس، حوار صادق بعيد عن الأنين والبكاء، والشكوى، واليأس والاستسلام.

انعزلت أراجع مسيرة حياتي القصيرة مع نادر، في محاولة أن أدرك أين يكمن الخطأ الذي جر زواجي إلى هذه النهاية المريعة. الكل يقول إنني جميلة الملامح، لطيفة الروح، هل لم أكن فتاة أحلامه؟ هل قصرت معه؟ هل خذلت توقعاته؟ هل استمرار عملي في البنك السبب أم استسلامي لرحيله؟ هل كان عليّ منعه بالقوة؟ كيف؟ هل كان هناك أمل لبقائه؟ لا أدري! لم يشركني في القرار، رحل ببساطة كأنه حق طبيعي له، كأنه ليس زوجا ولا أب لمولود لم

يعِ شيئا في الحياة بعد؟ رحل وتركني وسط ضجيج الأسئلة، أسأل لماذا رحل؟ ولكن الخلاصة أنه رحل كما رحل أبي، والخلاصة أني لم أعرف السبب كما لم نعرف السبب يومها.

*****

كان أول قرار أتخذه منذ أن خرجت من عزلتي ومن حالة اللاوعي التي عشتها في الفترة الأخيرة، أن أذهب لزيارة الدكتورة جليلة في منزلها، بعد عزلة استمرت ما يقارب الشهر. لم أقبل أي نوع من أنواع التواصل الذي حاول أن يقوم بها نادر شخصيا من مكان غربته أو عن طريق أسرته، غيرت رقمي، ورجوت أمي وأخي ألا يتجاوبان مع محاولاته للتواصل. كنت أعتبر رحيل نادر خيانة أخرى، الخيانة الأولى عندما أخفى عني كل تلك الأمور الجسيمة والثانية عندما تخلي عنا وتركنا رغم عدم وجود مبرر لكل ما حدث، حتى خيانته الأولى كنت قد بدأت أتعايش معها وأتقبلها. حملت قلقي وهواجسي وحملت ابني وذهبت إلى منزل الدكتورة في الموعد الذي حددته لي، كان منزل الدكتورة في منطقة جديدة امتدت من مدينة حدة السكنية باتجاه مدينة الأصبحي السكنية، منطقة جديدة أسفل الجبل الذي تقبع فوقه قلعة بيت بوس. وصلت إلى الحي الجديد فهالني التخطيط الجميل للأحياء والمنازل الأنيقة بعضها عبارة عن فلل صغيرة وبعضها تقارب القصور وكلها محاطة بالأشجار والنباتات الجهنمية المتسلقة الممتدة التي تتسلق أسوار المنازل بألوانها المتنوعة ما بين الورق الأحمر والأصفر.

أدخل المنظر لقلبي بعض من شعاع الجمال والأمل، وصلت، كان الباب الكبير مفتوحا وسيارة زوج الدكتورة تخرج، توقف على جانب الطريق وانتظرني بترحيب ودود، كنت قد تعرفت عليه في حفلة البنك، ودق الجرس لي حتى يتم فتح الباب الداخلي، غادر وهو يلوح بيديه لزوجته التي خرجت ووقفت عند الباب.

دخلت إلى المنزل، وكان على درجة عالية من الأناقة والبساطة، جلسنا في قاعة وسطية – الردهة- وكانت عبارة عن صالون أنيق تحيط به المزهريات الكبيرة الفخارية ذات النقوش الجميلة ويحيط به أيضا زرع طبيعي كثير. جلسنا وكان ابني نائما فاقترحت وضعه في الديوان – مجلس عربي- القريب منا.

جلسنا نتحدث بمواضيع مختلفة، قدمت لي خلالها الشاي وبعض الحلوى، شعرت أني مقيدة لا أدري كيف أبدا؟ ولا أدري ماذا عليّ أن أقول؟ ران الصمت لثوانٍ، شعرت الدكتورة بما يخالجني، فبادرت قائلة:

- متى ستعودين للعمل؟

أجبت:

- لا أدري.

فقالت:

- هل تشعرين أن العودة إلى البنك سوف تعيد لكِ ذكريات تحاولين نسيانها؟

فقلت مبتسمة بمرارة:

- الذكريات المُرة كلها كانت بعد أن تركت البنك، ثم لا أريد أن يدمر لي نادر مستقبلي كما دمر لي حياتي من قبل، البنك هو المكان الأفضل للعودة للحياة.

تحدثنا كثير وأخبرتها أن رسوم أول سنة في برنامج الماجستير قد دُفعت بالفعل، ورغم توقف القيد فإن المبلغ ما زال محجوزا لصالح أول سنة في البرنامج، ربما لم يذكره نادر وربما تركه هدية لي وذكرى للحلم الذي رسمه لي، وعليه يمكن لي البدء بالدراسة مباشرة.

ردت الدكتورة مبتهجة:

- أحسنتِ يا خولة، ما حدث قد مضى، عليكِ الآن أن تسيري في طريقكِ وتكملي ما بنيتيه سابقا.

سكتتْ وهي تفكر بشيء ما، ثم أضافت:

- الأستاذة سامية أصبحت مديرة إدارة الدراسات وسوف تكون مسرورة إذا عملتي معها في الإدارة.

شعرت بقلبي ينبض لأول مرة منذ أن بدأت مأساتي مع نادر، تحرك الدم في عروقي، وتجددت الرؤية أمامي، شعرت بحافز قوي بأن أعود للعمل والدراسة وإلى البنك –بيتي الثاني– وسألت:

- هل يمكن هذا؟

فقالت:

- سوف أسعى قدر الإمكان لتحقيق هذا.

استيقظ صادق من النوم باكيا، جاءت ابنتا الدكتورة مبتهجتين لسماع صوت طفل في المنزل، وتلقفنه قبل أن أصل إليه، سكت صادق متعجبا من تلك الوجوه المشرقة، نظرت إلى صادق وفكرت لولا وجوده لأعتقد أن ما مررت به كابوسا مخيفا، كيف حدث ما حدث في هذه الفترة القصيرة؟ كيف تحولت من فتاة تبني مستقبلا وتعتني بأمها وأخيها، إلى امرأة شبه مطلقة ولديها ابن في هذه الفترة القصيرة!!

رفضت مساعدة أهل نادر لي في احتياجات ابني، ولم أقبل بأي مبلغ، وقد احتجت عليّ سهام وأكدت عليّ أن أكون ممنونة لهذا التصرف، فهناك رجال إذا انفصلوا عن زوجاتهم توقفوا عن دعم أولادهم، وكأن طلاق الزوجة طلاق للأبناء أيضا، وعاد تقول مستنكرة:

- وهذا ما حدث مع صاحبة المشغل التي كنت أعمل معها قبل الزواج، وأنتِ هكذا ببساطة تتخلين عن حقوقكِ!

تنهدتُ محاولة استيعاب حجم الظلم الذي يقع على كثير من النساء اللاتي يفنين أعمارهن بالاهتمام بالأسرة، متناسيات تأهيل أنفسهن، وإذا حدث طلاق وجدن أنفسهن لا يملكن مؤهلا للحصول على وظيفة تمكنهن من إعالة أنفسهن وأولادهن وخصوصا إذا تخلي الأب عن هذا الواجب، ومع شحة الإمكانيات يسرن على البركة ويتقبلن الظلم كقدر ونصيب في حياتهن. وأمي خير مثال، نظرت إلى سهام وقلت منهية النقاش:

- عندما تأتي المساعدة من نادر سوف أقبل.

عدت إلى البنك وعادت كل الذكريات كما توقعت الدكتورة، واكتشفت أننا نبكي عندما نتذكر تلك الذكريات التي كنا نضحك فيها، عدت وعادت ملامح نادر التي أحاول دائما التخلص منها، عادت تلك الحوارات التي كنا نتبادلها هنا وهناك، تلك المشاريع التي كان يخبرني عنها قبل زواجنا، عدت إلى البنك بهيئة مختلفة، لست تلك الفتاة الخائفة، القلقة، المترقبة للآتي، لست تلك الفتاة التي خطت أول خطوة لها بكثير من التوفيق والتشجيع، عدت إلى البنك صورة مجسدة عن الحزن والكآبة. مرت أيام قليلة، ونفضت عن نفسي كل الذكريات وكل الأحزان وعدت للعمل مع الأستاذة سامية وبدأت دراسة الماجستير وكانت أمي خير عون لي فيما يتعلق بالاهتمام بصادق.

مع عمل سيف ومع عودتي إلى العمل، قررنا الانتقال إلى شقة أفضل وأوسع في حي قريب من حينا السابق ولكنه أحدث وقريب من الشارع الرئيسي. صار لكل منا حجرته الخاصة وكانت حجرتي الأكبر، ضمتني أنا وصادقا، وأثثناها من محل الأثاث المستخدم، ولكننا هذه المرة اخترنا شيئا أفضل مما كنا نملك.

كانت أسرة نادر حريصة على زيارة صادق لهم زيارات دورية، وبالطبع اضطررت للموافقة، فهذا من حقهم، لم أقبل أن يرسلوا لي مخصصا شهريا، ولكني كنت أقبل تلك الهدايا الكثيرة التي كان يعود بها صادق والتي تتنوع

بما قد يحتاجه، لم أكن أذهب مع صادق لمنزلهم، كنت أرسله أحيانا مع أمي وأحيانا آخذه إلى منزلهم وأغادر دون أن أدخل. كان أخي سيف يلعب بخجل دور الخال والأب لصادق، واجبا واستشعارا بالمسؤولية في البداية، وحبا ومعزّة فيما بعد، خلقت علاقة جميلة في حياتي وعوضت عن وجود الأب لصادق ولو قليلا.

*****

مرت السنة تلو السنة وكبر صادق، أصبح طفلا جميلا قويا، أخذ من أبيه كل الملامح وأخذ مني سمرة البشرة ونعومة الشعر. كان طفلا دائم الحركة، منشغل عنا بعالمه الخاص من اللعب ودفاتر التلوين والأقلام الملونة، وبمجرد أن أكمل الثالثة أهديته دراجة كان يلعب بها في فناء العمارة الخلفي أو في الحديقة عندما نخرج للتنزه. كانت علاقته بأسرة أبيه مستمرة وكان يحب زياراتهم ويقصّ عليّ عن الألعاب التي يمتلكها في بيت جده، وكانت علاقتي بأبيه منقطعة رغم محاولاته بالضغط عليّ عن طريق أسرته، لم يسع لضمنا إليه كما وعد، لم أسال، تجنبت كل محاولاته للتواصل معي منذ رحيله، توقفت المحاولات وغطى تراب النسيان علاقتنا.

أخبرتني أمي ذات يوم بأنها اكتشفت في إحدى تلك الزيارات أنهم يتواصلون مع نادر من خلال الكاميرا على جهاز الحاسوب فيشاهد ابنه، لم أرحب بهذا الاكتشاف، ولكني سكت فليس من حقي مراقبة ما يحدث في منزلهم.

وهكذا مرت حياتي وأنا ما بين العمل والدراسة وصادق، وقليلا ما كنت اجتمع مع نوال التي تمت حفلة عقد قرانها وكانت تستعد للزواج بكريم وقد أخبرتني أنها لن تترك عملها بعد الزواج، إلا لفترة بسيطة عند إنجاب طفل، فيجب أن تتعلم من التجارب حولها، بالطبع تقصد تجربتي.

كان زواج نوال وكريم الفرحة الأولى التي استطاعت أن تكسر حالة الحداد التي يعيشها قلبي، انشغلت معها كثيرا وخرجت معها لتوفير المستلزمات متجاهلة مرارة الذكرى القريبة وأنا في موقفها أجهز لحياة قادمة، كان عرس نوال مناسبة جمعت الجميع كافة موظفات البنك وزوجات الموظفين وحتى زوجة الدكتور مراد كانت مدعوة وقد قدمت لها هدية ثمينة من الدكتور ومنها، وكانت أمي وخالتي وسهام أيضا مدعوات، رقصنا وابتهجنا وزفينا العروس وأنا أتمنى لها حياة سعيدة وأدعو الله أن يجنبها تجربتي الحزينة.

قررت نوال العودة إلى عملها مع بعض التغيير فقدمت طلبا لنقلها للشؤون القانونية حتى لا تجد نفسها مع كريم طوال اليوم مما قد يخلق مشاكل حسب قولها، وعملت مع بشرى وكان المحامي عادل مديرا للإدارة. وذات يوم وأنا ونوال نتناول فطورنا وقبل أن تلحق بنا بقية الموظفات، كانت نوال سارحة في أفكارها وفجأة أرسلت تنهيدة طويلة، سألتها:

- ماذا حدث لما هذه التنهيدة؟

قالت:

- هل تذكرين وفاة والد الدكتورة جليلة منذ ثلاث سنوات؟ ومع ذلك ما زالت قضيتها التي رفعتها على أخوتها تلف في المحكمة.

سألتها بتعجب:

- قضية؟ أي قضية؟ وكيف عرفتي عنها؟

قالت:

- لقد سمعت المحامي عادلا يحدثها ذات يوم في المكتب، فقد كلفته تولي القضية من خلال مكتبه الخاص الذي يعمل فيه في المساء. يرفض أخوتها إعطاءها نصيبها من الميراث بحجة أنه عمارات وأراض لا يودون بيعها في الوقت الحالي.

نظرت إليّ واستمرت:

- ولكن بالطبع هذا غير صحيح لقد سمعت المحامي عادلا يقول لها اليوم أن هناك أراض تباع بتوكيل أعطاه أبوها لأخيها الكبير قبل الوفاة وبمعرفة بقية الأخوة، حتى يدير الأمور خلال مرض الأب، ولكنهم أخفوا عنها ذلك، ولم تعلم إلا من الأستاذ عادل محاميها الذي عرف بطرقه الخاصة.

سألت:

- ولكن لماذا؟ هل هناك سبب؟
- لا! ولكن يفترض أغلب الأخوة ألا نصيب لشقيقاتهم من مال الأب، بحجة ألا تذهب أموال أبيهم لرجل غريب -زوج شقيقتهم-، على

الرغم من أن زوجاتهم –بحسب حجتهم إذا ما طبقناها – يمكن اعتبارهن نساء غريبات ومع ذلك يتمتعن بأموال أبيهم. أما إذا لم تكن أختهم متزوجة فحجتهم هنا بأنها ليست بحاجة للمال طالما يقوم أحدهم برعايتها!!

تعجبت من ذلك وسألت:

- وهل ما زالت الدكتورة تأمل بأخذ حقها؟

قالت نوال وهي تراقب قدوم الزميلات:

- على الأقل تحاول، الكثيرات يتنازلن ببساطة من أجل عدم خلق عداوة مع الأخوة!

*****

وصلت الزميلات وبدأ الحديث العام، وكنت أسرح بخيالي ماذا لو كنت مكان الدكتورة هل كنت سأقاضي أخوتي؟ أم سأتنازل وأحرص على رضاهم عليّ؟ لماذا كل هذه القيود وكل هذه الأعراف التي تعرقل حياة الآخرين؟ ولكن لما لا يتصرفون كما أمر الشرع؟ لما يأخذون من الشرع ما يناسبهم ويحرفون ما لا يناسبهم؟ لما يقع الظلم على كثير من النساء دون استثناء الصغيرة، الكبيرة، الفقيرة، الغنية، المتزوجة، غير المتزوجة، كلهن!! لما يعجزن على أخذ حقوق فرضها الله لهن؟ لما يرفضون ان يتمتع زوج الأخت بمال الأب بينما زوجاتهم يعيشن عليه؟ لماذا نساء مثل الدكتورة قويات، متعلمات، وما زلن يطالبن بحقوقهن تلك التي شرعها الله والتي يجب أن تعطى دون

مطالبة، ونساء مثل الأستاذة سامية ما زلن يرضخن مستسلمات للعادات والتقاليد تلك التي سنها البشر، لم أجد أجوبة على أسئلتي ولن أجد!!!

كانت تتكشف لي هذه المشاكل يوما بعد يوم منذ قدومي إلى صنعاء؟ هل لأن أهل الحديدة يعيشون حياة بسيطة خالية من التعقيدات؟ أم لأني أنا من وسط فقير همومه ملحة تركز على توفير الأكل والشرب ولا وقت لديه لخلق عادات وتقاليد؟ هل هموم هذه الطبقة الفقيرة أعفتهم من هموم القيود؟ أو ربما لأن محيطي كان ضيقا، وصديقاتي محدودات، وجيراننا مشغولين بهمومهم لا وقت لدينا للتركيز على هموم الأخرين، فلا نتناقلها؟

(12) لقاء خلف الشاشة

كنت قد أنهيت الماجستير بعد عامين من الدراسة والاجتهاد، سعدت بهذه الشهادة إلى درجة كبيرة، تأملتها طويلا ووجدت نفسي أتذكر نادرا وهو يرسم لي حياتي القادمة ويقول لي أن أول خطوة هي الحصول على الماجستير، لا أتذكر ما الخطوات التالية من الحلم، ولكني كنت قد اكتفيت بهذا، وشعرت أن إمكانياتي المالية يجب أن تنصب لمصلحة ابني صادق. وكان للشهادة أثرا، إذ تمت ترقيتي إلى مساعد باحث للدكتورة سامية وزاد راتبي وما يلحقه من علاوات.

طرقت البهجة حياتي عندما اعترف لي سيف أنه تعرف على فتاة في معهد اللغة الذي يدرس فيه مؤخرا، وأنه ينوي خطبتها، والجميل أن الفتاة هي منال شقيقة نوال، شعرت بفرح غامر غمر الجفاف الذي أشعر أن قلبي يعيشه بصمت واستسلام، كنت أعرف منال، فتاة جيدة جدا ولطيفة ومرحة مثل نوال وبخلاف شقيقتها كانت جادة وعملية، وكانت مثلي تكتفي بالحجاب دون نقاب.

لم يتأخر سيف في الزواج، كلاهما يعمل، لذا تم الزواج بتعاون سيف ومنال، كان حفلا جميلا، قاصرا على الأهل والأصدقاء المقربين في إحدى القاعات، وكانا قد استأجرا شقة في العمارة المقابلة لنا حيث كانت شقة نوال وكريم.

كان ابني صادق بلسما دائما لي، يعيد لي بهجة الحياة كلما اكتشف أنها تتسرب من قلبي، أصبح كل شيء بالنسبة لي ولأمي، أغدقتْ عليه من حنانها

الكثير، ومارست معه أمومة سخية، وكما قالت لي، كانت أمومتها معنا محفوفة بالخوف والقلق وشحة الإمكانيات، أمومة لا تأمل إلا ببقاء أولادها على قيد الحياة، لذا تعوض مع صادق تلك الأمومة المطمئنة، الهادئة. وهكذا مرت الأيام تجر بعضها البعض بهدوء ورتابة، لم يكن يكدرني إلا زيارة صادق لمنزل جده، والذي كان يتضمن لقاءه مع أبيه عبر الكاميرا.

*****

شجعتني الدكتورة جليلة للدخول في منافسة للحصول على منحة دراسية لبرنامج تأهيلي في الإدارة والتكنولوجيا لمدة عام في سان فرانسسكو، إحدى مدن أمريكا. بداية لم أستوعب، فشرحت لي أن بعض المنظمات الدولية تهتم بتأهيل الشباب خاصة العاملين في مؤسسات الدولة فترسلهم في برامج تأهيلية ممولة قد لا يحصلون على شهادة محددة، ولكنه أشبه بتدريب لمدة سنة. ذهلت وسعدت بالفكرة كثيرا وتحمست لها وبحثت عن كل المعلومات وتصفحت صورا لهذه المدينة فوجدها تفوق خيالي، مبان عالية، شوارع واسعة، حدائق خضراء مترامية الأطراف، بحيرات، جسور، فاق تصوري وفاق أحلامي، بحثت معلومات عن البرنامج واكتشفت أني أستطيع أخذ ابني معي، فزاد حماسي وتملك كل كياني وسعيت له بكل طاقتي. وكنت أشعر أن هذه الرحلة ستكون بمثابة هدية من السماء أستطيع من خلالها ان أرى العالم كيف يعيش؟ وكيف يعمل؟ رحلة ستنقلني إلى عالم مختلف عن عالمي، تجربة ستكون غنية وممتعة بالتأكيد.

ولكن من هذه النقطة بدأت معاناتي الجديدة كانت العثرة الأولى، جواز سفري لم يكن معي، بالتأكيد ضمن أغراض نادر في منزل أهله، كما كان عليّ استخراج جواز سفر لصادق، اكتشفت أني لا أستطيع استخراج جواز سفر لابني إلا بموافقة والده غير الموجود، واكتشفت أني لا أستطيع السفر إلا بموافقة زوجي لأن الطلاق مع الأسف لم يتم ولم أهتم حينها، وبهذه العراقيل التي تركها لي نادر، حسمت أمري وقررت التواصل مع نادر وعدم توكيل أحد للحديث عما يخصني أنا.

سهرت الليل كاملا وأنا أتقلب على الجهتين، أحيانا أتخيل نفسي أحدث نادرا فيجيش صدري بعدة مشاعر متناقضة، حبي له في ذلك الزمن وكرهي له في الزمن التالي وعدم المبالاة به في الزمن الحالي، مرت حياتي كاملة أمام عيني الساهرتين، تذكرت معاناتي وأنا طفلة في الحديدة، رحيل أبي وألم اليتم، رحيل أخي ومرارة التخلي، رحيلنا إلى صنعاء، ومعاناتي في الشهور الأولى بحثا عن عمل، قلق وخوف، ومرت أمام عيني المتعبة اللقطات السريعة لحياتي مع نادر والتي انتهت أيضا برحيله، سهم أصاب أعماق الأنثى داخلي، وغصة ألم وقلق من تربية ابن دون أب، سلسلة من المعاناة من عمر مبكر، ممزوجة بالحزن والقهر، جافاني النوم فأزحت الذكريات جنبا وعشت خيالا مع نفسي وقد وصلت مع صادق إلى بيت العائلة الأمريكية التي سأسكن معها عندما أذهب، أجوب المدينة مع صادق، أتعرف على عالم جديد، حياة

جديدة بعيدا عن الماضي ومرارة الذكرى لعام كامل، فيفيض قلبي ترقبا وخوفا ممزوجا بالفرح، هل يكتب لي القدر حصة من الفرح؟

بالطبع كانت أمي ضد الفكرة، أما أخي سيف فقد تحفظ برأيه، واعتبرا أنها مخاطرة لا داعي لها، وأني في وضعي الحالي لا أحتاج لهذه الرحلة وخاصة مع صادق، فلا ينقصني شيء، ولكن أليست التجارب الجديدة غذاء للروح؟ ألا تعد الرتابة موتا بطيئا؟ لماذا لا أنطلق في هذه الحياة طالما سأكون مع ابني فلا يترك وحيدا كما تركه من قبل أباه؟ لماذا لا أسافر وأشاهد العالم خارج حدودي الضيقة؟ لماذا خلق الله هذا العالم الواسع؟ اليس للإنسان، يرحل، يتعرف، يستكشف، لماذا لا استغل هذه الفرصة؟

أرسل لي والد نادر الرقم، وهو يعيد لي برسالة على هاتفي اعتراضه على سفر صادق، ولكن هل كان يملك حرية الاعتراض على سفر ابنه نادر حتى يعترض على سفر حفيده؟؟!! أخذت الرقم وتمنيت أن أذهب إلى مكان بعيد حتى لا يسمعني أحد، ولكن لا مفر، فأمي متربصة بالمكالمة أكثر مني وهي تدعي بصوت مسموع ألا يتم السفر.

دق الهاتف هناك، حيث فر نادر لا أدري لماذا؟ هناك حيث لا يمكن لي رسم ملامح عن المكان، مكان غريب عني، مجهول، هناك حيث توقع أنه سيجد الفردوس وسيجد عالم خال من الفساد ومن الاضطهاد، سمعت صوته بعد غياب ما يقارب الثلاث سنوات فعاد بقوة لي ذلك الصوت الذي صحب أحلامي الفتية، ذلك الصوت الذي أرسل لي كلمات الوداع دون عودة.

حاولت أن أجعل المكالمة رسمية قصيرة حازمة، ولكنه بعثرها كلها وأرسل لي عبر الهاتف تنهدات حارة وهو يقول:

- خولة، أخيرا حبيبتي، أخيرا سمحتي لي أن أسمع صوتكِ، خولة اشتقت لكِ حد الموت، اشتقت لوجودكِ بجانبي، اشتقت لإشراقة عينيكِ عندما تبتسمين لما أصبحتِ بهذه القسوة؟ كيف استطعتِ أن تخنقي حبنا بهذه القسوة.

أغلقت الهاتف وسقطت على الكرسي وتدفقت الدموع في عيني نهرا أخفيته وأنا أمثل دور المرأة القوية، حطم كل قلاعي التي بنيتها على قلبي معتقدة أن حبه خارج القلاع، ولكن صوته، فقط صوته دمر كل تحصيناتي، كنت أتمنى أن أصرخ وأقول له بكل صدق "لم أعد خولة التي كنت تعرفها ولم تعد عيناي تشرق عندما ابتسم". لم أستطع محادثته، لن أسمح له بقتلي حزنا وقهرا وقد اعتقدت أني واريت التراب كل ذكرى له.

قررت أن أخاطبه عن طريق الرسائل، فأرسلت رسالة متجنبة كل ما سمعته منه على الهاتف وتحدثت بموضوعية وأخبرته أني أرغب بموافقته لإصدار جواز لصادق وموفقته لسفري، وكان بالطبع على علم بسبب المكالمة.

رن الهاتف ردا على رسالتي، ولكني لم أرد، فردت أمي وسمعت كلمات الترحيب العادية الساذجة في حالتنا، وسمعت أمي تقول ببساطة " تمام كما ترغب"، وتعود وتسمع ثم تقول "بالتأكيد لا تقلق سوف أبلغها".

أنهت أمي المكالمة وأقفلت الهاتف وهي تبتسم قائلة ببساطة:

- لن يوافق على إصدار جواز سفر لابنه ولن يوافق على سفركِ، قال إن أمريكا ليست تلك الدولة التي تستطيعين السفر إليها بمفردكِ دون تعرضكِ لمشاكل كثيرة، نادر لا يستطيع المجازفة بكما.

نظرت إلى أمي المبتسمة ابتسامة مبتهجة باستغراب وشعرت بطعنة في قلبي الجريح، سمعت بكاء صادق فهرعت إليه وأنا ضائعة، تائهة عن كل ما حولي "لا يستطيع المجازفة بكما" عن أي مجازفة يتحدث؟ وقد جازف من قبل وتركنا وحدنا دون مبرر، دون سبب إلا إرضاء لأحلامه وهواجسه التي لا يعرفها إلا هو، هذا إذا كان يعرفها، تركنا بوعود لم ينفذها ولم أهتم بالسؤال عنها، عن أي مجازمة يتحدث؟

شعرت أني لا أستطيع مشاركة أمي حزني وألمي، ولا التعبير عن شعوري المر وكأني ملكا لشخص، لا إرادة لدي ولا حرية اتخاذ القرار ولا حرية لي بابني الذي حملته داخلي تسعة أشهر، ربيته، سهرت عليه، عملت كل هذا وحدي، أين كان من كل هذا؟! شعرت أني أنا وصادق ملكية مسجلة باسم شخص تخلى عن كل المسؤولية المتعلقة بهذه الملكية إذا صحت التسمية، ولكنها ظلت ملكيته، كيف يمكن لشخص أن يمتلك غيره، يمتلك حرية القرار نيابة عنه؟ كيف يمكن لشخص أن يمنع رغبات غيره لمجرد أنه في يوم ما ولفترة محدودة كان زوجا! طافت كل هذه الخواطر في عقلي، وأنا مستلقية على سريري وبجانبي صادق، أسمع صوت تنفسه الهادئ وقد عاد للنوم، ماذا يعرف عنه نادر؟ هل يعتقد أن الأبوة تكمن في تلك اللقطات التي يبثها أهله

له عندما يكون صادق عندهم؟! هل ساوره القلق لأن حرارته قد ارتفعت قليلا؟ هل ضحك وجهه وهو يمسك بيديه في خطواته الأولى؟ بأي حق يتحكم بحياة صادق وهو لم يساهم ولو بقليل من أبوته في حياته حتى الآن.

*****

سوف أحارب، نعم سوف أحاربهم جميعا، نادرا وأهله وأهلي، حتى وإن كنت أعلم أن صادق المصدر الرئيسي للبهجة في منزل جده، أعلم أن سفر صادق حتى ولو لعام فقط سوف يصدم جده وجدته، ولن يتحملا غيابه، ولكن هذه حياتي، وهذا ابني، يجب أن أفرض سيطرتي عليهما، وإن كنت قد تجاهلت الطلاق، فقد آن الأوان لاتخاذ خطوات صارمة. أغمضت عيني أنشد النوم قبل أن يظهر الصباح، ولكن هيهات كانت كلمات نادر على الهاتف سكاكين تطعن كل مقاومتي وكل نكراني لحبه، ذلك الحب الذي ملأ حياتي في وقتا ما، وكيف لا؟ وقلبي يومها كان غضا، خالٍ تماما حتى من الأحلام.

أخيرا جاء الصباح، وأشرقت الشمس غير مبالية بمعاناة البشر أو سهرهم طوال الليل، أشرقت الشمس تعلن يوما جديدا، وكانت الخطة في عقلي مشوشة، ولكنها كانت تتبلور رويدا رويدا. وصلت إلى البنك كالمعتاد، ذهبت إلى مكتبي وأمسكت الهاتف وطلبت تحويلي لقسم الشؤون القانونية، كنت أعرف أن مدير الشؤون القانونية وهو محامٍ، شخص لطيف ومتعاون، أسرّت لي نوال –حيث تعمل تحت إدارته– أنها تشعر بإعجابه بي فهو يسألها بين

الحين والآخر عني، لم أهتم بملاحظة نوال يومها، ولكني ويا للغرابة شعرت اليوم أنه سيكون من مصلحتي فعلا لو أنه معجب بي فسوف يساعدني بكل الطرق للتخلص من سيطرة نادر، وطلبت موعدا لمقابلته.

ذهبت إلى مكتب المحامي عادل وفقا للموعد، رجل تجاوز الأربعين، أرمل ولديه ثلاثة أبناء، يعيشون جميعهم مع والديه، كانت ملامحه رصينة ونظراته تنبئ عن حزن طرقها في وقتا ما منذ ما يقارب الخمس سنوات عندما فقد زوجته إثر حادث، فنذر نفسه لأولاده الثلاثة الذين أصبحوا على مشارف الدخول للجامعة تباعا.

قصصت له بالمختصر رغبتي بالطلاق من نادر فقط دون بقية القصة، تعجب، بل ذهل وظهرت على ملامحه الدهشة:

- ألم يطلقكِ بعد؟
- لا لم أهتم بذلك يومها، فلا نية لي بالزواج مرة أخرى.

فتسأل بتردد:

- والآن هل قررتِ الزواج؟

فاضطررت لإكمال بقية قصتي والمنحة وفكرة السفر ورفض نادر لذلك، نظر إليّ قائلا:

- أعتقد أن من حقكِ طلب الطلاق، ولكني لست متأكدا من حقكِ باصطحاب ابنكِ دون موافقته.

ثم أضاف:

- ولكن هل هذه السفرية ضرورية؟ إنها أمريكا! هل لديكِ تصور عما تعنيه أمريكا؟ إنها غير آمنة.

لا أدري لماذا ولا كيف وجدت نفسي أقول له وبصوت عالٍ وبنبرة عصبية نوعا ما، ودون توقف، وكأنه مسؤول عن كل ما حدث لي:

- وهل كانت صنعاء آمنة عندما أتيت إليها غريبة لا أعرف أحدا، شبه مطرودة من بيت أخي، مسؤولة عن أمي وأخي الأصغر؟ هل كانت صنعاء آمنة وأنا أبحث عن عمل في مدينة أجهل كل شيء عنها؟ هل كانت صنعاء آمنة وأمي يصيبها الرعب إذا ما تأخرنا في ترتيب أمورنا وعاد زوج خالتي وابنتها من السفر فأين ستستضيفنا خالتي؟ هل كانت صنعاء آمنة وأنا فتاة وحيدة أجوب شوارعها الغريبة دون هدى؟

سكتُ والذكريات تلاحقني ثم أكملت بنفس الحدة:

- أعترف أني كنت محظوظة حين وجدت بالصدفة عملا لم أتوقعه، ولكني مررت بشعور مخيف وبرعب حقيقي من أن أجد نفسي وأمي وأخي نفترش الشارع، أو نتسول من خالتي لكي تأوينا. أي أمان تتحدث عنه في وطني؟ هل تعلم أن البرنامج هذا الذي تنتقده معد بخطوات واضحة لاستقبالنا وتأمين سكن لنا داخل أسوار الكلية؟ هل تعلم أن البرنامج وافق بأن أسكن لدى عائلة لتهتم بابني عند

ذهابي للكلية؟ هل تعلم أن البرنامج سوف يقدم لنا مخصصا شهريا يفيض عن حاجاتنا؟ هل تعلم أني سأدرس مجانا؟ وأني سأسكن مجانا؟ وأني أيضا سأحصل على راتب شهري! هذا هو البرنامج الذي جميعكم ترفضون وتستنكرون رغبتي بالالتحاق به.

وخرجت من المكتب مسرعة متحاشية تساقط دموعي أمامه. جلست على مكتبي أستجمع شتات نفسي وقررت أن أركز على عملي مؤجلة كل شيء قليلا ومتجنبة استشارة الدكتورة حتى لا تشعر أنها سببت لي بهذا المقترح مشكلة. قارب اليوم على الانتهاء عندما طرق المحامي عادل باب مكتبي، دخل وجلس أمامي وقال:

- أعتذر عما سببت لكِ من ألم، سوف أهتم بقضيتكِ، وأعتقد أن أمر الطلاق سهل طالما الدكتور نادر سافر ولم يعد، ولكن الأفضل مبدئيا عليكِ طلب ذلك منه وديا، فإن رفض؛ تختارين تقديم الطلب عن طريق المحكمة، ولكن أمر الوصاية لست متأكد منه تماما، سوف أطّلع على الموضوع وأفيدكِ قريبا.

وقف مكررا اعتذاره وخرج دون أن أرد عليه إلا بهزة رأس.

*****

أرسلت رسالة لنادر أخبره برغبتي بالطلاق، وكلي أمل أن يوافق دون الخوض في طريق المحاكم، أريد فقط استرداد حريتي المقيدة دون معنى. ولكنه مع الأسف رد عليّ بعبارة غزل "وهل تطلبين مني اقتلاع قلبي من بين أضلعي!"

فأرسلت له دون تفكير "وهل يعيش القلب منفصلا عن صاحبه"، فزعت عندما استوعبت بما قمت به، فحظرت رقمه، وأرسلت الطلب لرقم هاتف الأب موضحة له أن طلب الطلاق منفصل عن رغبتي بالسفر، فلم أتلق ردا. مرت الأيام ثقيلة، كان موعد تسليم بيانات الجواز من أجل إصدار التأشيرة يقترب، ولا حل لدي، أخبرني كريم زوج نوال أن بإمكاني بالرشوة إصدار جواز السفر لابني، وأنه يعرف من يمكن أن يقوم بهذا، لم أرتح بعمل مخالف للقانون، فلم يخذلني القانون بعد، فقلت له:

- ليس الآن، دعني أجرب الطرق السلمية.

نظر إليّ كريم وقال بتردد:

- على أي حال، أعذر الدكتور نادرا، لو أن نوال جاءت وطلبت مني السفر في هكذا برنامج لمدة سنة، الحق يقال لم أكن لأسمح لها! مستحيل!

نظرت إليه وقد شعرت بغضب هائل يجتاحني –وكنت في نظر الجميع أهدأ الفتيات–:

- ولو حدث العكس! لو أن البرنامج كان مخصصا لك، ورفضت نوال أن تسافر وتتركها لعام كامل، ماذا كنت ستقول؟ إنها على حق؟! هل من حقها الاعتراض على سفرك لعام واحد فقط؟ ما رأيك؟!

سكت ولم ينطق بحرف، ولكن ملامحه كانت تظهر ما يفكر به "وهل يمكن لنوال أن تمنعني من السفر؟!"

تركته وأنا أشعر بالظلم الذي يقع علينا نحن النساء، ظلم معترف به كالهجران، والكل ينتقد ولا أحد يعمل على وقفه، وظلم غير معترف به بتقييد حريتنا وإدارتنا لحياتنا!

قررت أن أذهب إلى منزل والد نادر وأحاول معهم، ذهبت لأول مرة منذ أن سافر نادر إلى منزل والده بصحبة ابني في موعد زيارته المعتادة، شرحت لهم الكثير عن البرنامج ورجوت الأب ووضحت له أن عاما واحدا لن يؤثر على أي شيء، ووجدت نفسي أرجو الجميع!

ولكن الجميل أن شقيقته الصغرى نهى وقفت معي بكل طاقتها وبأصدق المشاعر، شرحت لوالديها حجم الفائدة التي سأحصل عليها، ووضحتْ بكل شفافية حاجتي لترميم نفسي من كل ما حدث، عبرتْ أفضل مما عبرتُ أنا، ولكن لا حياة لمن تنادي.

أصبح السفر تحدٍ أكثر من كونه رغبة، أحبطت من قِبل الكل، أسر لي الأب إن وافقت على الحديث مع نادر عبر مكالمة مرئية فقد يساعد ذلك على موافقته، وأوحى لي أن هذا ما شعر به من خلال حديثه مع ابنه، واقترح أن أحدثه اليوم كوني حاضرة، وافقت، كيف؟ لا أدري؟ ولكني وافقت! لا أدري إذا صدقت أنه عندما يراني سوف يوافق أم أني في أعماقي كنت أرغب برؤيته بعد طول غياب! وافقت وأنا أعتبر نفسي مضطرة لذلك، لا أدري!

جلست ممسكة بيد ابني استعدادا لهذا اللقاء، فتح الأب الكاميرا فدهش نادر عندما شاهدني أمامه بدلا من أبيه وابنه، عقدت المفاجأة لسانه، وعقد

الحزن كل كياني، هو نادر كما أعرفه، هو نفس الشخص الذي كان قبل ثلاث سنوات، تحدثت بصعوبة وطلبت منه بصوت متقطع أن يجعلني أمضي في حياتي البسيطة كيفما أرغب، كان ينظر إليّ صامتا، وفجأة قال ابني بكلماته الطفولية:

- كيف يجعلكِ تمضين يا أمي؟ إنه غير موجود.

طعنني السؤال البريء، ابتسمت لابني وعدت أواجه نادر بإصرار غريب قائلة:

- طلقني يا نادر أرجوك، لم يعد لهذا الارتباط داعٍ ولا معنى.

ولكنه لم يكن يصغي إلي، كان يبكي بصوت مكتوم مغطيا وجهه بيديه، واكتشفت أن أمه كانت تبكي أيضا، وفطنت أن الهدف من المكالمة ليتأثر نادر برؤيتي ويفكر بالعودة، سمعت نادر يكرر دون توقف:

- لا أستطيع... لا أستطيع!

وجدت عيناي تطوف إلى ما وراء نادر، مستغلة تلك الثواني التي كان واضعا يديه على وجهه، فتشت بغباء عن أثر للمرأة، عن أشياء طفلة، عن جو أسرة، ثم ضبطت نفسي وابتعدت عن الجهاز وأطبق الأب الشاشة وقال لي:

- اسمعيني يا ابنتي، نادر يحبكِ كثيرا، كوني على يقين من ذلك وما زال يحبكِ، اعذريني لو قسوت عليكِ، لو أنكِ تمسكتِ به، لو أنكِ لم تتركيه مشوشا، لو أنكِ يا ابنتي تمسكتِ به لكان هنا ولم يسافر. خولة صدقيني كأن نادرا عاد فقط من أجل أن يلتقي بكِ، من أجل أن يتزوج بكِ، أقنعيه يا خولة أن يعود لنا.

تسمرت في مكاني، هالني أن أجد شخصا يحملني مسئولية العذاب الذي أعيش أنا فيه، هالني أن أكون أنا المخطئة وأن أكون أنا القادرة على استرجاع نادر، نظرت إلى والديه وشعرت بالشفقة، ولكني قلت بصوت خافت:

- لقد تركني دون سبب ودون مقدمات، لقد تركني وفي أحضاني مولودا يحتاجه أكثر من احتياجي أنا له.

وأخذت ابني وغادرت مسرعة وأنا أسمع احتجاج ابني الذي كان يرغب بالبقاء كالمعتاد وقتا أطول في منزل جده. لحقت بي نهى وأخبرتني أن عليّ المحاربة للحصول على ما أريد وهمست لي:

- لقد حاربت نادية (شقيقتها الكبرى) كثيرا ونجحت، لقد سافرت بعد سفر نادر بفترة قصيرة، أنهت الماجستير وهي الآن بصدد الانتهاء من الدكتوراه.
- مبارك لها، إنها فتاة قوية ليتني مثلها!
- هل تعلمين أنها زارتنا قبل عام وتمت خطبتها بابن عمي وسوف يتم الزواج بمجرد عودتها.

سعدت لنادية كثيرا، إنها تستحق، قوية ولا تترك الفرص تغادرها ببساطة، ودّعت نهى وخرجت.

*****

ووجدت نفسي في الشارع دون أن أعرف ماذا حدث؟ وكيف تحول لقائي بوالديّ نادر إلى لقاء مع نادر. خرجت مسرعة من المنزل وأنا أحاول تهدئة

أنفاسي المتلاحقة وكأني كنت أركض لمسافة طويلة، نظرت إلى نهاية الشارع حيث كان منزلي، ما زال هناك، قابعا مثلما تركناه على حين غفلة، ترى هل تسكن فيه أسرة سعيدة؟ آمل ذلك، هالني الألم الذي أشعر فيه وقررت التوقف عن كل المحاولات حتى تسكن جراحي مرة أخرى، ليس من أجلي، ولكن من أجل هذا الكائن الصغير الذي يعتقد أن الآباء هكذا مكانهم خلف الشاشات.

وتجاوزت تاريخ تسليم بيانات الجوازات وطارت المنحة، وطار معها الحلم الذي اعتقدت بكل سذاجة أني أستحقه وأنه هبة من الله لي على صمودي ونهوضي من عثراتي ومن حزني وألمي، ولكن لم يكن هبة من الله، بل كان خنجرا طعن مكان الجرح الذي كنت أعتقد أنه اندمل فتفجرت مرة أخرى كل آلامي، وحظيت بصور جديدة أقلبها في خلوتي، تلك الكلمات على هاتفي وتلك الصورة لنادر وهو يبكي بصمت، ولكن بحرقة، "لا أستطيع ... لا أستطيع!" ترى ما هو الذي لا يستطيع عمله وهو حر تماما ويستطيع عمل ما يريده! لماذا حدث ما حدث؟ هل أنا فعلا المخطئة كما قال أبوه؟ هل كان يجب عليّ التمسك به وأن أصرخ بصوت عالٍ رافضة سفره ورحيله؟ من منا سعيد بما حدث؟ ليس أنا بلا شك، إذن يفترض أن يكون هو، لأنه هو من سعى لكل هذا. لماذا يحق له الرحيل ببساطة تاركا مسؤولياته بينما لا يحق لي السفر متحملة مسؤولياتي؟ لماذا يحق للرجل أبي وأخي وزوجي

الرحيل بحثا عن أحلامهم ولا يحق لي تحقيق حلم محدود الفترة؟ وضعت رأسي على المخدة ونمت وأنا أسمع صوته "لا أستطيع ... لا أستطيع!".

*****

لم تسألني الدكتورة عما حدث، ولكنها علمت بكل شيء، حدثها نوال وكريم وعادل، فتكونت لديها صورة واضحة عما حدث، لم أرغب إخبارها بنفسي حتى لا تشعر أنها نكأت جراحا وسببت مشاكل لم تكن تتوقعها، ولكني تحدثت معها بشأن آخر:

- كيف يمكن أن نعتبر أنفسنا أحرارا ونحن مقيدون بكل هذه القيود حتى من أشخاص غير موجودين في حياتنا؟

وسألت مباشرة دون انتظار ردها:

- لماذا لا أملك الحق في اتخاذ قرارات تخص ابني مع أنني المسؤولة عن كل شيء في حياته من مأكل وملبس وحماية، بينما أبوه هناك بعيد جدا ومع ذلك يملك الحق في الأمر والنهي فيما يخص ابني!

قالت لي الدكتورة ردا على أسئلتي:

- نحن نعيش في مجتمع سنت قوانينه لصالح الرجل غالبا، فإذا وافق فُتحت الأبواب وإذا رفض أغُلقت الأبواب أما إذا تحدينا فسنخسر الكثير!

ونظرت إليّ مركزة تماما على عيني وقالت:

- حتى أولادنا قد نخسرهم، ليس لصالح أباءهم مع أنه حق من حقوقهم، ولكن لصالح الجد أو الجدة أحيانا.

ففهمتُ ما تقصد، حتى لو طُلّقت وسافرتُ، فقد يحصل الجد بكل بساطة على حضانة الحفيد، إن لم يكن بالقانون فبالرشوة ببساطة للأسف! وهكذا تم وأد الحلم فور ولادته مباشرة، وعدت لحياتي، ولكن الطلاق ظل معلقا في بالي، منتظرة أن يسود الهدوء حتى أتمكن من فتح طلب الطلاق مرة أخرى بمساعدة المحامي عادل.

(13) فشل وانكسار

مع الأسف كنت حديث البنك علنا، أمامي وبالتأكيد في مجالسهم، الكل بارك لي تلك المنحة والسفرية التي أبهرت كل الموظفات واعتبرنها ضربا من الخيال، رحلة تعليمية شاملة، وفي بلد متقدم مثل أمريكا!! ونفس الشعور بالنسبة للموظفين الذين صارح البعض منهم باستحقاق شاب للذهاب بدلا من امرأة، على الرغم من وجود برامج خاصة بالشباب، لكن يظل حق المرأة مهضوما أو منعدما عند البعض!

وهكذا بقدر ما استقبلت التهاني بقدر ما سمعت المواساة، والكل –مع الأسف– علم أسباب عدم ذهابي، فصرت مضرب المثل، كل حسب رأيه أو توجه تفكيره. استسلمت لما حدث وتعلمت الدرس، ألا أعلن عن أي خطة تمس حياتي، وإن كنت لم أعلن هذه المرة أيضا!

ولكن الذي لم يزعجني في هذه الضجة كلها أن الأستاذة سامية فتحت لي قلبها، وقد أصبحنا صديقات أكثر من علاقة مديرة وموظفة، قالت:

- أستطيع تخيّل حزنكِ لعدم ذهابكِ، وأن يتحكم رجل غير موجود بمصيركِ ومصير ابنكِ، ومع الأسف من المعتاد أن تخضع كثير من النساء لهذا التحكم وتتوقف كل أحلامهن وطموحاتهن في سبيل أسرهن، وبالطبع الكثيرات يعتبرنه وضعا طبيعيا، والقليل يتذمرن بصمت، والأقل من تدخل في صراع غالبا ما ينتهي بالطلاق.

قلت:

- ولكن هل تعتبرينني متزوجة؟
- نعم، مع الأسف، متزوجة مع وقف التنفيذ، ومثلكِ كثير جدا.

فضحكت بمرارة وقلت:

- أعلم! أمي إحداهن، من حظها أنها لم تحلم بالسفر، وخاصة أن موقع أبي مجهول، لكي نطلب موافقته.
- نعم، على مر العصور تتشكل مثل هذه الزيجات، زواج مع وقف التنفيذ، لا صان الأمانة بالرعاية، ولا بتحرير علاقة لا جدوى منها.

ران الصمت بيننا، ونحن نشرب الشاي –في المكتب– وفجأة قالت:

- ما بالك بتحكم أخوة أصغر منكِ سناً وخبرة وثقافة وحتى ماديا.

نظرت إليها وتذكرت ما أعرفه عن قصتها مع أخوتها، قلت:

- ماذا تعنين؟

قالت وهي تبتسم:

- كما انتشرت قصتكِ بكل تفاصيلها، متأكدة أنك قد سمعتي بقصتي.

سكت ولم أدر ما أقول وكان صمتي مؤشرا على موافقتي لكلامها، فأكملتْ:

- أعتبركِ صديقة، ربما الصديقة الوحيدة في البنك التي تحدثت معها في هذا الموضوع، اعذريني أرغب في الكلام بشدة، أرغب بتحرير القليل من زحمة المشاعر في أعماقي وضجيج الأسئلة في عقلي والتي أخذت مني الكثير وتواصل سحق أيامي.

- أسمعكِ.
- تحكم أخوتي بفرص زواجي ومنذ البداية، رفضوا شبابا لا يعيبهم شيئا، ولم يخبروني عنهم، كنت أعلم من أمي، رفضوا شابا كان قلبي قد تعلق به هنا في البنك، فهددوني بترك عملي في البنك، علم الشاب بالأمر، ضحى بوظيفته وترك البنك، بعد مرور ثلاث سنوات رأيته صدفة في إحدى المحلات بصحبة زوجته وطفلة صغيرة.

ابتسمتْ:

- هل تصدقي! تخيلت أنها كان يمكن أن تكون ابنتي!!

وأكملتْ:

- بعد تحكمهم بفرص زواجي، تحكموا بكل الفرص التي أتيحت لي، فرصا أبسط من فرصتكِ هذه، فقط مشاركة لمدة يومين في مؤتمر، فعالية خارج اليمن، دورة تدريبية في عدن لمدة أسبوعين، كل هذا ممنوع، ولا مجال حتى للسؤال. هل أخبركِ ما هو الأمر؟

سكتُ، فتابعتْ:

- نحن سواسية في المشاركة في نفقات المنزل، أعيش مع أمي وأحد أخوتي مع أسرته، بالطبع هذه المشاركة لا أمانع عليها، ولكن حتى أعرض عليكِ الصورة بوضوح.

تنهدت وأكملت:

- أتساءل، من وضع هذه القيود؟ ما الحل؟ هل يجب أن نتمرد؟ وبالتأكيد سيتسبب ذلك بفضيحة للأسرة، وسأتحمل هذا الوزر كاملا في مجتمع لا يرحم المرأة، على الرغم من أن تمردي فقط من أجل حقوقي. أعيش برتابة، أيامي متشابهة، أسير وفق نظام معروف مسبقا، وأخلد في الليل مع أحلامي، تارة أنا أم لطفل يداعب أيامي، تارة أنا في سفرة علمية، وأخرى ترفيهية، أحلام أغذي بها أيامي، علها تمر.

سكتتْ وسكتُ، وأنا أعيش خيالا لا أدري من أين جاء، تراءت لي الأستاذة سامية وهي في منزلها الخاص وحولها أطفالها وزوج محب، حياة طبيعية، حرمت منها دون سبب.

دخل أحد الموظفين فأعادنا لواقعنا وللعمل، وانشغلنا ببعض الأمور، وقررت أن أدفن ما قصته عليّ في أعماقي ولا أقصه على أحد، إنها لحظة نادرة أن يشعر شخص –مثل شخصية الأستاذة سامية وتحفظها– برغبتها بالبوح بمكنونات قلبها وعقلها.

*****

طلبتُ من المحامي عادل رفع طلب الطلاق، وعندما حظيت بالورقة أرسلتها لشقيق نادر الأكبر سناً منه وطلبت إرسالها لنادر متجنبة أبيه الذي حملني مسؤولية ما حدث، وانتظرت عواقب هذه الخطوة. يوم واحد فقط مر على

إرسالي للطلب، وأتى عادل إلى مكتبي مخنوق العبرات، جلس مع تنهيدة وقال:

- لقد اتصل لي الدكتور نادر أمس وأسمعني كل ما استطاع من كلمات الغضب المغلفة بالعتاب، وقال إني شجعتكِ على طلب الطلاق، وذكرني بزمالتنا وبأني يجب أن أقف في سبيل بقاء أسرته وليس بتدميرها، وأنه عائد قريبا.

دهشت ولم أجد جوابا لأرد على المحامي عادل، ولكنه كان يبدو مهموما جدا، نظراته نحوي حزينة، لا أدري هل يشفق عليّ أم أن ما لمّحت به نوال حقيقيا، أغمضت عيني وتنهدت ووجدت عبارات للاعتذار، نظر إليّ مليا ونهض دون أن يقول شيئا، ولا أدري ما الذي سيحدث لاحقا! هل سيتكاتف الرجال مع بعضهم البعض؟ هل سيتخلى عني عادل؟ ما هو الحل؟ لا أدري!

(14) فضفضة وشجون

كنا في الراحة اليومية، صعدنا إلى كافتيريا السطح، أنا ونوال وليلى وبشرى، كنا نتناول فطورنا كالمعتاد على مر تلك السنوات ونمزح كالمعتاد على مواقف تحدث في البنك، إلا ليلى كانت شاردة، ولا تشاركنا الحديث، فسألتها بشرى عما يزعجها، فتنهدت من أعماقها وقالت:

- لا أدري من الضحية أنا أم هي أم هو؟

تبادلنا النظرات فيما بيننا متسائلات عن هذه الأحجية، فأكملت:

- سأخبركن بالحكاية كلها، فقد يخف الضغط الذي أعيشه منذ أسبوع وأصارعه وحدي.

وأكملت:

- أخو زوجي توفي منذ ستة أشهر كما تعلمن، تاركا زوجته أماني وثلاث فتيات صغيرات، عادت أماني إلى منزل أهلها تعيش حزنها وصدمتها فقد توفي زوجها فجأة إثر حادث، إلى هنا كل ما حدث قضاء الله وقدره.

كنا نعلم بخبر وفاة شقيق زوجها وقد ذهبنا لتقديم واجب العزاء لها ولزوجته، وانتظرنا أن تكمل قصتها حتى نفهم من الضحية؟

قالت بعد تنهيدة من أعماقها:

- قبل أسبوع أخبرتني عمتي –أم زوجي – أنها تريد مني تقدير الموقف والضرورة، وبكل بساطة أعلنت أن على زوجي الزواج بزوجة أخيه

المتوفي حتى تضمن تربية الفتيات من قبل عمهن وعدم ذهاب الأم لرجل آخر.

عقدت الدهشة لساني، لم أسمع عن ذلك من قبل!! ولم أتخيل أن شيئا كهذا يمكن أن يحدث!!، بينما سمعت نوال وبشرى يرددن أن هذا الشيء مألوف في بعض العائلات.

عادت ليلى تكمل قصتها:

- لماذا يتحكمون بحياتنا؟! ليس لي ذنب في وفاة ابنهم، ثم هل ترغب الأرملة بهذه الزيجة؟ ربما كان لها خططا أخرى، لما تجبر على هذا الزواج ما لم سيتم أخذ الفتيات منها إذا فكرت بزوج آخر!! وزوجي هل هو مبتهج بهذا القرار؟ هل هو ضحية لتحمل مسؤولية جديدة لا ذنب له بوجودها؟ لا أدري من الضحية أنا أم هي أم هو؟

نظرت إلينا كأننا سنعطيها الجواب، وعندما التزمنا الصمت، عادت لتكمل همها:

- فكرت أن أتمرد وأذهب إلى منزل أهلي مع ابني وابنتي، وأرى هل سيفضل زوجي حماية أسرة أخيه أم أسرته؟ مع أن أسرة أخيه غير معرضة للضياع، الأم في منزل أهلها وهي موظفة ومركزها في العمل قوي، شخصيتها قوية، ولا شيء ينقصها، إنه فقط الخوف من أن تبدأ حياة جديدة مع رجل آخر. وأمّ زوجي أكدت لي أن البشر

جبلوا على التأقلم، وأني سأتأقلم، وأجد نفسي محظوظة لأن أبو أولادي موجود على عكس الأخرى!

سكتت وتعلقت عيناها بنا مرة أخرى وكأنها تنتظر منا حلا سحريا، ولكننا كنا في ضياع ولا حل لدينا، كانت نوال من قطعت الصمت المخيم علينا قائلة:

- بأي حق يتم التحكم بالنساء وكأنهن متاع يتوارث؟ وماذا قررتِ يا ليلى!

ابتسمت ليلى بمرارة وقالت:

- أتخيل هل سأستطيع تحمّل سماع خطوات زوجي وهو ذاهب إلى حجرتها ليلا؟ هل سأستطيع تأمل وجهه صباحا وهو خارج من حجرتها؟ أشعر أنهم يدقون مساميرا في نعشي، ويغرسون سهاما في قلبي، ليس من السهل بتاتا تحمل هذا الشعور من مجرد تخيلات فكيف إذا أصبح واقعا!! لا أدري ما الذي يمكنني قوله! لم يجرؤ زوجي على مخاطبتي بهذا القرار حتى الآن، أعلم أنه لا يحب أن يجرحني، ينظر إليّ وكأنه ضحية لا حول له ولا قوة، لا أدري إن كان ضحية أم أن زوجة جديدة على قدر من الجمال يمكن اعتبارها مكسبا!! أيضا لا أدري!

قالت بشرى:

- وافقي، لا تخسري زوجكِ وحق أولادكِ بحياة أسرية طبيعية.

صحنا جميعا:

- ماذا؟!

فقالت:

- إن عبارتك العفوية "لم يجرؤ زوجي على مخاطبتي بهذا القرار حتى الآن، أعلم أنه لا يحب أن يجرحني"، تبدو لي كمشهد من فيلم رومانسي! ماذا أقول لقد فقدت المعنى الحقيقي للزواج والعشرة، ونسيت أن أُساسها المودة والرحمة رغم أني عشت وسط أسرة طبيعية قبل أن أتزوج، ولكن بعد الزواج نسيت أن هذه هي خصائص الزواج والأسرة، نسيت أو تناسيت، لا أدري!

سكتنا ولم نعرف ماذا تقصد، أكملتْ:

- سأعترف لكنّ أنا أيضا كيف تمر حياتي منذ أكثر من عشرين سنة، تعود زوجي منذ بداية زواجنا على الصراخ لأبسط خطأ أقوم به، ثم تطور الصراخ إلى كف يسقط على خدي، احتجيت، ذهبت إلى منزل أهلي، اعتذر وعدت مع نصيحة أمي "لا تغضبيه"! جاء الأولاد متتاليين، أربعة أطفال، وتحول الكف إلى ضرب لأتفه الأسباب، لا أدري لماذا؟ إنه حنون تجاه أولاده، يلبي طلباتهم بكل حب، تحملت، أشعر أحيانا أني أريد أن أكون الضحية وأن يقدر لي أطفالي حرصي على بقائهم مع أبيهم تحت سقف واحد، ولا أريد أن أتمرد وأتركه فتمر السنون ويكبر أطفالي ويعتبرونني السبب في

بقائهم خارج إطار الأسرة الطبيعية. لم أعد أعرف ما هي الأسرة الطبيعية وما هو الصحيح؟ أحزن عندما أشعر أن ابنتي سوف تكبر وهي تشعر أن هذه هي الحياة الطبيعية وهذا هو نموذج الزوج المعتاد، وتقبل على نفسها هذا الدور لو صادف حظها مع رجل مثل أبيها، وكيف لا وأنا نفسي قد تفاجأت من كلمات ليلى وكأن وضعي هو السائد في كل البيوت، لو أن زوجي يقرر الزواج من أخرى لفرحت على الأقل تأتي لتقاسمني ذلك الصراخ والشتائم والضرب وتخفف عني بعض الوقت المر.

سألتها ولا أدري كيف خرج السؤال شديد الخصوصية:

- وهل وضعكما حميميا يمر بشكل طبيعي؟

ردت وكأن السؤال فعلا طبيعي:

- نعم، بالنسبة له نعم، ولكن بالنسبة لي فأعتبره أمرا أريد فقط أن أنتهي منه، مثله مثل لحظات الضرب!
- ألا تستطيعين تغيير هذا الوضع؟
- كيف؟! لن يُسمح لي بالاستقلال بشقة بمفردي مع أولادي، ولا أرغب بحشر نفسي وأولادي في منزل أهلي، لن أتحمل نظرات الإشفاق كوني مطلقة، والاتهامات بأنني السبب، سأبقى على ما أنا عليه إلى ما شاء الله تعالى.

سكتنا وواصلنا تناول ما تبقى من طعام الفطور الذي نسيناه ونحن نتابع قصص الحياة، انتهى وقت الراحة ونهضن ليلى وبشرى ونوال مغادرات وبقيت

في مكاني، أتامل الحياة، عادات وتقاليد لا أدري من سنها، ولكنها تُنفذ وكأنها نزلت مع سور القرآن الكريم، لا مجال للاعتراض، ووجدت نفسي أسترجع صورة نادر مع تلك المرأة، نعم لقد طعنتني تلك الصور، وهي مجرد صور، وكانت هي الزوجة الأولى، كانت ضحية مثلما أنا ضحية، وعادت كلمات والد نادر إلى خيالي المتعب وكيف ببساطة حملني مسؤولية سفر نادر وكأن الرجل دائما ما يكون الضحية، وعدت أفكر ما الذي يمنع ليلى بأن تعيش حياتها، وأن تسلك أماني –أرملة شقيق زوجها– طريقها، تعيشه كما تشاء؟ لماذا تُهدّد بأخذ بناتها وتجبر على زواج لم تقبل به؟ ولماذا تعيش بشرى معاناة يومية دون ذنب؟ هل يمكن أن تنصفها العادات والتقاليد وتسمح لها بالاستقلال في منزل مع أولادها وتعيش حياة كريمة دون أن تلوكها الألسن؟ هل يمكن أن ينصفها القانون بفرض إنفاق الأب على أبنائه دون محاكم طويلة المدى؟ مرة أخرى يقيد حب الأمهات لأولادهن وحرصهن بأن يعيشوا حياة أفضل. هل أخطأت أنا أيضا؟ هل تجاهلت مصلحة ابني؟ لم أعد أدري ما هو الصح وما هو الخطأ في هذا العالم المتشابك بكل هذه العادات والتقاليد. نفضت الذكريات وأسرعت مغادرة المكان وأنا أسمع أحاديث وضحكات بعض الزملاء الباقين، وشعرت إلى أي مدى يعطيهم المجتمع حق القرار وحق السيطرة، ولا تتم الأمور إلا حسب رغبتهم! ربما، لا أدري الكثير عن عالمهم!

(15) جلسة صديقات

كنت مدعوة لجلسة في منزل نوال، كانت جلسة محدودة فقط أنا وسهام ومنال زوجة أخي، ذهبت بمفردي وتركت ابني عند أمي، كانت جلسة مريحة ودودة جلسنا في مقيل نوال الصغير وكانت نوال وسهام يتناولن القات وأمامهن الماء والعصائر المتنوعة، وكنت أنا ومنال مشاركات في هذا الجو دون أن نتناول القات، تحدثنا في أمور متنوعة ومنها حمل نوال وتعبها المتواصل هذه الأشهر، وتحدثنا عن المدارس وقد أصبح لسهام ولدين يستعد أكبرهم لدخول المدرسة، فتطرقنا إلى شؤون المدارس، وغيرها من مواضيعنا المشتركة، وأخيرا تطرقنا إلى قضية الساعة، عن حقوقنا المسلوبة، قالت سهام ضاحكة:

- هل تصدقن أن زوجي رفض سفري مع صديقاتي إلى الحديدة لقضاء نزهة صغيرة! هكذا هم الرجال لا يرون أننا النساء لدينا اهتمامات غير الاهتمام بهم وببيوتهم، فقد قال لي بكل صراحة "لا أجد لهذه الرحلة معنى" وكأني دعوته للحضور معنا!

وضحكتْ، فقالت نوال:

- نعم التنزه في رأيهم مخصص لهم، أما نحن فلنا الفتات.

قاطعتها شقيقتها منال قائلة:

- أعتقد أنكن تبالغن، القليل من الحوار المقنع يمكن أن يغير الوضع، فلماذا نعلن حربا دون داعٍ؟

سألتها نوال:

- هل تعتقدين أن سيف قد يقبل بسفركِ للخارج دون أن يرافقكِ.
- بالتأكيد، ولكن حتى أكون صادقة معكن، أنا عن نفسي لا أريد أن أترك بيتي لأكثر من سنة، إلا إذا كانت ذات أهمية وستعود علينا بالمنفعة، ما لم فالأسرة أهم.

ضحكت شقيقتها نوال وقالت:

- ولكنه كان ضد سفر خولة، ...دعينا نجرب، أخبريه أن فرصة كهذه سنحت لكِ وعندها سنكتشف حقيقة رأيه.
- أرفض أن أكذب على زوجي، لا أرغب في هز الثقة بيننا وبطريقة سيئة لمعرفة رأيه في موضوع ما! ثم إنه لم يعترض على سفر خولة، شعر فقط بأن الأمور غير مرتبة، وبأن شيئا ما غير سليم في السفر دون علم نادر.

كانت كلمات منال صادقة وقوية وشعرت إلى أي درجة هي إنسانة واضحة وصريحة، تعرف الصح من الخطأ بوضوح، عملية ومنطقية، وتعرف كيف تبني حياة زوجية على أساس سليم.

غادرت منال بعد وقت قصير لانشغالها ببعض الأمور، وبقينا ثلاثتنا، وكانت العلاقة بيننا هي الأقوى.

وفجأة قالت سهام:

- أمور شكلية نتجاهلها نزهة، سفر لا مشكلة، ولكننا نتجاهل أمورا أكبر.

نظرنا إليها فواصلت:

- هل أشرككن السر الذي اكتشفته منذ عدة شهور.

سكتنا ونظرنا إليها وقد بدا على ملامحها الألم، أكملت:

- لقد اكتشفت أن زوجي متزوج في السر.

أصابتنا الدهشة، لم نتوقع خبرا مثل هذا، وأخيرا كسرت نوال الصمت:

- كيف عرفتي؟

أجابت:

- بالصدفة سمعته يتحدث معها وفهمت من الحديث من هي بالضبط.
- وهل صارحته؟

فردت سهام:

- صارحته؟! بالطبع لا، كان أمامي طريقين إما مصارحته أو السكوت التام. إذا صارحته فسينشب بيننا شجارا كبيرا، ليس على الزواج فقط ولكن على الخيانة، إنها خيانة أن يكون زوجكِ مع امرأة أخرى وأنتِ لا تعلمين! وإن اعترف فقد يخيرني بين البقاء في هذا الوضع أو الطلاق، وقد يعلن زواجه ويقلل من الاهتمام بنا ويعطيها من وقته

أكثر، فاخترت عدم مصارحته وأبقيت السر داخلي والآن فقط نفست عنه قليلا معكن.

قلت وأنا أحاول أن أستوعب:

- لماذا يخفي زواجه؟
- لا أعلم.
- وكيف تقبلين بهذا الوضع؟
- وهل الأفضل أن أجد نفسي وحيدة أربي أطفالا دون أب ودون دعم، هل تعلمين أن الكثير من حالات الطلاق لا تتم بالتخلي عن الزوجة فقط، ولكن عن الأبناء أيضا، كما حدث مع المرأة التي كنت أعمل معها، فاعتبري تضحيتي هذه من أجل أولادي. إنني غير مؤهلة جيدا، فلا أستطيع أن أحصل على عمل يضمن لي حياة كريمة مع أولادي، وأسرتي دخلها محدود ولا أريد أن أجد نفسي عالة عليهم.

تنهدت من أعماق قلبها الحزين وأكملت:

- يجب أن يتم الاهتمام بتأهيل الفتيات حتى يكن قادرات على مواجهة الظروف التي ترغمهن على الاعتماد على أنفسهن.

قلت لها وأنا أتذكر مشاكل صديقاتي في البنك ليلى وبشرى وسامية:

- لا يكفي التأهيل يا سهام أعرف نساء مؤهلات ومن أسر مقتدرة ومع ذلك تقبلن الظلم، لا يكفي التأهيل يجب أن تربى الفتيات على عدم قبول الظلم، على الاعتراض والرفض لكل ما يسيء لهن تحت

مبرر العادات والتقاليد وتحت ظروف الخوف من الحاجة والفشل وكلام الناس. يجب أن تربى الفتيات على إجهار الظلم عليهن وعدم السكوت، ليتمكنّ من العيش حياة لائقة، والمحاربة من أجل أي فرصة قد تحقق أحلامهن وتوفر لهن حياة أفضل.

سكتت وسكتنا وسرحت كل منا في همومها الحالية أو المتوقعة. ومرت بخيالي سهام وكيف تبدو سعيدة بحياتها، مقتنعة، تمزح وتهرج كثيرا وتبدو إنسانة خالية من الهموم الكبيرة، ويبدو أكبر همها ماذا أكل أولادها وأين المقيل القادم وكيف القات في هذه الأيام، حقا تتقن النساء فن التمثيل!!

مر الوقت بعدها بين أحاديث متنوعة متجاهلات ما سمعنا واقترب وقت المغرب فساد الصمت كما هو الحال في نهاية كل جلسة وغشا الظلام متمهلا مقيلنا، نهضت سهام إثر مكالمة من أمها تستعجل عودتها متذمرة من إزعاج الأطفال. وبقيت أنا ونوال، كل منا في عالم يخصها وحدها.

*****

كنت أسترجع كل ما تم بيني وبين نادر منذ أن بدأنا التواصل مؤخرا وكانت تعود لخيالي كلمات الأب، "إنه يحبكِ كثيرا وكأنه عاد فقط من أجل أن يتزوج بكِ"!

لمعت حجارة النرجيلة مع نفخ نوال لها، ثم عادت وخفت، فلاحظت أن الظلام أصبح سيد الموقف، وفجأة تسلل إلى مسامعي صوت نوال تسأل بصوت هادئ وكأنه أتي من بعد آخر:

- هل ما زلتي تحبين نادرا؟

ووجدت نفسي أجيب ببساطة، وكأن السؤال جاء من داخلي، وكأني أيضا أرد على نفسي:

- نعم، للأسف!

لم أستوعب عندما سمعت إجابتي، شعرت أني خُدعت، ظهر كأن أحدا آخرا رد نيابة عني وكان صريحا، فغيرت الموقف وصرخت:

- بالطبع لا، هل تتوقعين أني لا آزال أحب شخصا دمر حياتي كل هذا الدمار؟ ويكمل تدميره عن بعد.

ابتسمت كمعالج نفسي اكتشف العلة وقالت:

- الفرق كبير بين الغضب من شخص وبين كراهيته، أنتِ غاضبة منه كثير أنا متأكدة، لكني لا أعتقد أنكِ استطعتِ قتل حبه في قلبكِ.

حاولت أن أنتقم منها فقلت بصوت خافت:

- هل ما زلتي تحبين الدكتور؟

ضحكت بهدوء وقالت:

- لن تستطيعي أن تغضبيني، تعلمين أن ما كنت أكنه للدكتور لم يكن حبا، لا يمكن أن تحبي شخصا دون أن تغيري عليه، لم أكن أغير عليه. مثلا عندما كنت مراهقة كنت أحب الفنان نور الشريف وكنت أحلم أن أمثل معه، ولكني كنت أعلق على الجدار صوره مع زوجته الفنانة بوسي وأحلم أن ألتقيها هي أيضا.

تنهدت وأكملت:

- خولة أنا فقط أريد أن تعترفي لنفسكِ على الأقل ما هو شعوركِ تجاه نادر، وعلى أساسه واصلي طلب الطلاق أو توقفي عن ذلك، فالطلاق يا عزيزتي شأن كبير، لا يؤخذ بلحظة غضب، تقبل النساء الكثير مما لا يرغبن به ويتحملن الكثير من أجل ألا يتم الطلاق كما سمعتي بنفسكِ اليوم.

عادت لخيالي لهفتي وأنا أجوب المنظر خلف نادر أبحث عن أثر للمرأة، اعترفت لنوال:

- لا أرغب بتعذيب نفسي لذا لا أتخيل نادر مع المرأة الأخرى، ولكن عندما شاهدته من خلال الجهاز، شعرت بألم كبير وشعرت بغيرة لأول مرة في حياتي، ربما كنت قد أقنعت نفسي أنه غير موجود في الحياة، أو تخيلت أني سأجده في حالة يرثى لها، جالسا فوق الأطلال، ولكن لا، فقد كان في منزل يبدو أنيقا، منزل يحمل ملامح الأسرة.

ساد الصمت مرة أخرى مجلسنا وفكرت بكلام نوال، وشعرت بصدق كلماتها، وأحسست أنني لا أدري هل سيسعدني طلاقي من نادر؟ ما هي الحرية التي أنشدها غير رغبتي بالسفر؟ ولكن لما عليّ الارتباط برجل ليس موجودا في حياتي؟ زادت الأسئلة في عقلي وشعرت بالتعب وشعرت أن هم سهام زاد من همومي، فنهضت مودعة نوال.

(16) العائد

كنت أجهز حفلة عيد ميلاد صادق الرابع، زينا المنزل بالبالونات، واشتغلنا كلنا أنا وأمي وسيف وزوجته. دق الجرس فذهبت لأفتح الباب وأنا أتوقع أن يكون سيف قد أحضر بقية المستلزمات، ولكن عندما فتحت الباب كان ببساطة نادر!! تدفق الدم إلى وجهي وشعرت أطرافي كلها تخذلني، وهبط ظلام أمامي، عندما فتحت عيني كانت أمي بجانبي وكنت مستلقية على أريكة حجرة الجلوس، هل حلمت؟ إنه أشبه بكابوس، قبل أن أستفسر من أمي ماذا حدث لي، سمعت صوت الجرس مرة أخرى، لم تنهض أمي لفتح الباب، ولكن الباب قد فُتح، وسمعت صراخ صادق، نهضت بسرعة مترنحة بخطواتي وجدته يبكي خوفا، ووجدت نادرا موجودا فعلا. أخذت صادقا من حضن سيف الذي كان أيضا واقفا مذهولا، كان صادق ينظر إلى أبيه بخوف وهو يقول "أبي خرج"! سحب سيف نادرا وخرجا من المنزل فتنفست الصعداء وجلست أخفف عن صادق هول المفاجأة وأن يجد ذلك الشخص الذي يظهر دائما على شاشة الحاسوب موجود فعليا كبشر حقيقي. أخبرتني أمي أنها جاءت عندما فتحت الباب وشاهدتني أسقط بين يدي نادر مغشيا عليّ، فأراحني على الأريكة وطلبت منه أن يبتعد.

وهكذا بعد أربع سنوات عاد نادر، دون مقدمات، كما رحل فجأة، عاد فجأة!! لم يستدعني كما قال ولكنه عاد، لم أتحمل منه هذه المفاجأة، طلبت من سيف أن يتفق معه بأن يظل بعيدا عن حياتنا، حتى أستطيع تقبل

وجوده ويتقبل ابنه حضوره الفعلي، أخبره بذلك سيف، وتحدث معه بحزم وجدية، رافضا أن يحمل شقيقته معاناة أكثر مما عانت معه من قبل، حدثه حديث رجل لرجل، حديثا من منبع المسؤولية الواجبة على كليهما ووضح له أن اليوم غير الأمس.

*****

وهكذا عدنا لحفلنا الصغير ولم يشمل الحفل نادرا، أخذت أمي صادقا بعد انتهاء الحفل الصغير وذهبت به إلى منزل جده حسب ما كان الاتفاق، بعد أن شرحنا له أن أباه عاد من سفر ولم يخرج من الجهاز، ذهبت أمي معه بكل إصرار ألا تتركه إلا إذا تأكدت أنه لن يفزع مرة أخرى، وبقينا وحدنا في الحفلة أنا ونوال وسهام وأطفالها ومنال وخرج أخي لشؤونه الخاصة وهو يشعر بالغضب العارم.

لم أر نادرا بعد ذلك الموقف، واستمرت حياتنا كما كانت، فقط صار لقاء صادق بأبيه واقعا، وافق نادر على إعطائي كل المساحة التي أحتاجها حتى أتقبل وجوده، حتى أستطيع أن أقرر بخصوصه دون أي تأثير، دون أي تواصل، فلم أعد أتحمل مفاجأة جديدة. ولكني علمت من أمي وكما أخبرتها أم نادر، أنه أنهى الارتباط برومانيا تماما، طلق زوجته وفقا لطلبها، ورفضت أن يأخذ ابنته معه، ولكنهما اتفقا على التواصل الدائم بين الأب وابنته إلى أن تصبح مسؤولة عن نفسها فيمكن لها أن تأتي لزيارته إذا أرادت. وعرفت فيما بعد أنه بدأ بالعمل في شركة أخيه الأكبر، ويعيش في منزل أهله.

دعتنا ليلى وقد ظهر على محياها السرور للفطور الجماعي، واجتمعنا أنا ونوال وبشرى حول الطاولة في الكافتيريا مترقبات سبب البهجة، قالت:

- أنقذتني قوة شخصية أماني وشجاعتها من المصير الذي كان ينتظر حياتي الأسرية. رفضت بقوة قرار عمتي –أم زوجها – وأخبرتها أنها موظفة وراتبها أكبر من راتب المرحوم زوجها، وأنها ستبقى عند أسرتها وستربي بناتها ولن يفرض عليها أحد أي قرار لا الآن ولا مستقبلا.

صاحت بشرى:

- جميل ألف مبارك ليلى، ليتنا نحتذي بها!! كيف كان رد فعل عمتكِ؟
- دار نقاش طويل بينها وبين أماني بحضور والديّ أماني وزوجي، لم أسأل عن فحوى هذا النقاش ولكني علمت أنهم اتفقوا على أن يتم لأماني ما أرادت، وهكذا نجحت في الإمساك بزمام حياتها وعدم السماح لأحد بفرض قراراته عليها.

واصلنا حديثنا بكثير من الفرح وأخبرتهم ان هناك نساء يستطعن الحصول على حقوقهن وتنفيذ رغباتهن ومثلا عن ذلك نجاح نادية أخت نادر في الحصول على موافقة والديها للسفر إلى الخارج لإكمال الدراسة، وعدنا نتأمل فرحتنا بحصول أي منا على أحد حقوقها.

(17) العائد الآخر

التزم نادر بالاتفاق، ومرت الأيام متتالية، وكنت أعيش بهجة إدخال صادقا حضانة الأطفال، طلبت من الدكتورة السماح لي بالتأخر صباحا قليلا حتى أبقى معه بعض الوقت لمدة ثلاثة أيام في الحضانة، تاركة بقية الأسبوع المسؤولية على نادر.

عدت من عملي ذات يوم، فوجدت أمي واقفة عند المدخل ترتدي عبايتها ونقابها وأمامها حقيبة سفر صغيرة، لم أفهم ما الأمر الذي يجعل أمي على أهبة السفر هكذا فجأة. وقفت أمامها متسائلة، فقالت:

- انتظرتكِ حتى تستلمي الأمانة، صادق نائم في سريره، سوف أذهب إلى الحديدة سريعا.

فقلت لها بفزع:

- ماذا يحدث؟ هل أخي بخير؟ هل خالي بخير؟

سمعت صوت سيف خلفي يقول ببساطة:

- أبي عاد.

التفت إليه فوجدت على وجهه ظلالا من حزن، ألم، فزع لا أدري؟ ولكنه لم يكن وجه سيف دائم البهجة.

- نعم. وأكمل:
- لقد اتصل لنا خالي وأخبرنا أن أبي عاد.

سألت:

- هل هذا يعني أنه لم يمت.
- كما يبدو.

حملت أمي الحقيبة الصغيرة وتجاوزت أخي في طريقها إلى الدرج المؤدية إلى الخارج متجنبة حديثنا، فصرخت:

- أمي لماذا ستذهبين؟ ما هو الدور الذي تودين تمثيله؟ الزوجة الوفية؟ عشرون عاما لم تغيركِ؟ هل أنتِ مضطرة للذهاب وسماع ما سيقوله؟ أي تبرير سيبدو مقنعا الآن؟! لا شيء مقنع إلا أن يكون قد مات!

نظر إليّ سيف وقال:

- أتفق معكِ، ولكني سألبي رغبة أمي وسأذهب لتوصيلها إلى الحديدة.

وغادر لاحقا أمي وذهبا بالسيارة ببساطة وأنا أحاول أن أفتش في ذاكرتي عن صورة أب، فلا أجدها! تقدمت منال تحتضني ودخلنا المنزل وأنا أختنق بطيف الأيام الصعبة وسنوات الحاجة والذل التي عشتها كفتاة يتيمة وفقيرة، لا ... لا أستطيع أن أمحو كل شيء مر عليّ وأنسى قهر الأيام وحاجتي لأب يقف سندا لي، فلا أجده! ليس لأنه مات كما توقعت، بل لأنه ببساطة رحل!

رفضت بقاء منال عندي وأصررت أن تذهب إلى منزل أهلها كما كانت مخططة، وأغلقت باب المنزل ووقفت أنظر حولي، لأول مرة أجد نفسي وحيدة في المنزل، تحتل أمي حيز حياة فيه، تشكل لي العائلة التي فقدتها،

لم أعد أفرق، أشعر أني أنا وصادق أولادها، فهي ترعانا معا بنفس الاهتمام، خنقتني الحجرات الصامتة، جهاز التلفاز صامت، وكأن العالم حولي كله صامت. فوجدت نفسي أذهب إلى حجرتي حيث يرقد صادق وأخرجت مجموعة الصور التي تخص زواجي ورحلة شهر العسل وافترشت الأرض وجلست أقلبها أمامي، لا أدري لما أخرجتها؟ وأي نداء جعلني أخرجها؟ هل شعوري أن لا أحد سيكتشف لهفتي لاسترجاع تلك الأيام المحدودة لسعادتي؟ لا يهم ما هو السبب، طالعت تلك الصور والتي تنبض بفرحة أول العمر، من نعم الله أننا لا نعلم الغيب وإلا ما كنا استمتعنا بلحظة حلوة، أين ذلك النادر؟ وأين تلك الخولة؟ مر الوقت ووجدت أني أنظر إلى الصور، ولكن عقلي رحل إلى تلك البدايات إلى العمر الذي كان أبي معنا، صور ضبابية وهو يخرج كل يوم من المنزل ويعود مكتئبا، لا يشكو ولا يشارك أمي مشاكله، أذكر يوم خرج كالمعتاد تماما دون أي مؤشر لأي نية مبطنة، ولم يعد. أذكر قلقنا عليه وبحثنا ليل نهار عنه، ليته وفر علينا تلك المعاناة وقال لنا لا تنتظرونني، جلسنا حول أمي مفزوعين، خالد أكبرنا قارب العشرين، جميل في الثامنة عشر وأنا في الخامسة عشر، وسيف أصغر مني بثلاث سنوات، لم نتلق من العلم إلا صفوف المدرسة الشحيحة، تقلبنا من عمر مبكر في أعمال عديدة للحصول على ريالات قليلة نضعها في يد أمي أو نشتري بها الخبز والفول ونعود إلى المنزل نتناول وجبة شحيحة كلنا، كنا نعمل على مساعدة أبي ولكن رحيله كسر الطوق الذي جمعنا، فقدنا الأمان

بوجود أب وسند كيفما كان، كانت أمي عاجزة تماما كلما وجدت عملا فشلت فيه، فيزيد بكاؤها ليلا، نسمعها كلنا ولا ندري ما العمل؟ تعمدت بعدها أن أمحو صورة أبي من خيالي، ونجحت، نسيته تماما، أقرأ له الفاتحة عندما يخطر في بالي، لقد مات، على الأقل بالنسبة لي لقد مات، فكيف عاد اليوم؟!

*****

أخذت إجازة ليومين دون أن أخبرهم عن السبب وجلست في المنزل مع صادق، تأملت كل شيء حولي، ليس هناك أي بؤس، المنزل بسيط لكن جميل، الأثاث أنيق، مطبخنا يحتوي على كل الأساسيات وبعض الكماليات، لقد نجحت في خلق حياة أفضل لي ولأمي ولأخي، ماذا يريد أبي الآن أن يشاركنا فيه، واختنقت بالدموع وأخيرا تمكنت من البكاء، فبكيت طويلا قبل أن يرن الهاتف وكان من سيف:

- إنه أبي يا خولة، كنت أتوقع أن أجد شخصا ما انتحل شخصيته، أنه أبي ببساطة، وقصة قصيرة، ذهب إلى أرتيريا، عمل هناك، تزوج، أنجب، مرض، تركوه لمرضه فعاد، عاد حتى يجد من أمي الرعاية، سمعته يقول لها سامحيني، لم ترد، لم يعرفني، جميل رفض لقاءه، ماذا أعمل؟
- عود، عودوا واتركوه، فليذهب إلى أي مشفى ويهتم بنفسه.

- لا أدري! أمي تود البقاء هنا في منزل خالي، وسوف يتم نقله إلى مشفى غدا وقد تصحبه أمي.

وبالفعل عاد سيف اليوم التالي محملا بالهموم، عاد إلى منزله دون أن يخبرني أو يخبر منال ولم أكتشف إلا وجود السيارة أسفل العمارة عندما كنت أنظر من النافذة إلى عمارته المقابلة لعمارتي، لبست وخرجت، صعدت إلى شقته وفتحت الباب بالمفتاح الذي أحتفظ به، وجدت الشقة مظلمة، لا يوجد أي نافذة مفتوحة أو ستائر، كان ممددا على الأريكة بملابس السفر حاضرا وغائبا يصارع كما صارعت ذكريات رحيل أبي. جلست بجانبه وأخبرته أن عليه النهوض وتغيير ملابسه وحالته النفسية، سوف تعود منال بعد قليل لا داعي لإشراكها همنا، سمعته يقول وما زال مغمضا عينيه:

- لبست دور الضحية، شعرت أن عليّ مناصبة العالم العداء، إذا كان الأب قد ترك مسؤوليته فلما نتحملها نحن؟! أعترف لكِ اليوم بأني استمتعت بدور الضحية واستهترت بكل ما قدمتيه لي أنتِ شقيقتي، اعتبرت أني أنتقم من العالم وقد كنت أنتقم منكِ في الواقع، هل تصدقين؟ كرهت الضعف الذي عاشته أمي وصدمتني القوة التي ظهرتِ بها وأنتِ تقودينا صاعدين الجبال إلى صنعاء، خولة....

تقطع صوته بالبكاء المخنوق وهو ما زال مغلقا عينيه:

- خولة سامحيني، حملتكِ وزر كل المعاناة التي عشتها، لقد انُتشلت من مأساة، من واقع –كنت سائرا إليه– بفضلكِ وإصراركِ كي أنجح،

لقد شربنا مع أبي اليأس والشعور بالفشل والاكتئاب، وشربنا مع أمي كل الضعف، لذا حتى جميل لم ينجح كما كان يرغب، لأنه ما زال يعيش دور الضحية. جاءت منال في طريقي وعرفت فيها الفتاة القوية الطموحة دون حاجة لأن تكون قد مرت بظروف صعبة، لها عائلة وحياة خالية من الخوف والحاجة، ولكنها نشأت قوية ومستقلة لم تمد يديها لأبيها منذ أن بدأت تعمل ولم تنتظر رجلا يسندها، على العكس، فنحن شريكان يسندان بعضهما، فتعلمت منكما أن أكون أكثر إيجابية وأن أهتم بنفسي وبمسؤولياتي بقلب محب، نعم سامحيني خولة ضعت عندما جئنا إلى هنا ضعت وأتعبتكِ، دفعتي ثمن استهتاري واللامبالاة التي عشتها، سامحيني.

احتضنت أخي ووجدت كلامه يروي أعماقي، ويملؤني حبا واعتزازا، وسمعته يقول قبل أن يفتح عينيه وينهض:

- لا تدعي نادرا يمضي في حياة أخرى، لا تتركي صادقا دون أب.

*****

اتصلت أمي بأخي سيف بعد مرور أسبوع تقريبا، وأخبرته أن علينا القدوم لتوديع أبي الذي كان يحتضر، رجت سيفا أن نوافق ليس لأجل أبينا، ولكن لأجلها، تركت صادقا في بيت جده وذهبنا أنا وسيف، ووجدت نفسي لأول مرة أهبط جبال صنعاء باتجاه الحديدة والجو يزداد حرارة كلما تقدمنا، ظهرت أمامنا حقول أشجار الموز، ومرينا على الفلاحين بملابسهم المميزة، وكلما

اقتربنا أكثر وأكثر، ظهر في الأفق البحر، والشاطئ والصيادين وشبكاهم ترمى هناك من على القوارب البسيطة ينتظرون رزق يومهم. عاد إلى خيالي ذلك اليوم ونحن بسيارة الأجرة –البيجو– نسير نحو المجهول، في عكس هذا الاتجاه، يحدني الأمل ويحد أمي الخوف وتحد أخي اللامبالاة التي كان يعيشها يومئذ، نظرت إليه وقد أصبح رجلا، واثقا من نفسه، وله زوجة.

أعادتني رائحة الحديدة والدفء الذي أحاطنا كلما اقتربنا منها إلى ذكرياتي إلى أيام الطفولة عندما كانت الحارة ملعبنا، والأصحاب عالمنا، كم جرينا فيها، كم بنينا من التراب والحجارة مساكن طفولية، لم أكن يومها سوى فراشة تطير وسط صديقاتها، لم يكن هناك هم أو مسؤولية، حتى الفقر لم يكن يعني لي شيئا كانت هذه الحياة التي أعرفها، كبرت... كبرت قليلا فقط وأدركتني الهموم سحبتني من طفولتي سحبا، عليّ أن أساعد وأن أعمل وأنا ما زلت دون العاشرة، بدأت أستوعب الفقر والحاجة وبكاء أمي وصراخ أبي وتمرد أخوتي، ضاعت الطفولة سريعا.

جاءت فترة الصبا وقد اعتدت على دوري في الحياة، كنت أراقب صبي من أصدقاء الطفولة وقد كبر، سبقني طولا وظهرت عليه تلك المؤشرات لبداية الرجولة، زاد إعجابي به، كان يسكن عالمي الذي في خيالي، أغلقت على ذلك الحب المبكر بين جوانب قلبي، شغلتني الحياة وعندما تلفت أبحث عنه، لم أجده علمت أنه غادر مع أهله خارج اليمن، لا أدري أين؟ ولا متى؟ وبعدها بفترة قصيرة غادرنا أبي، ضاق محيطي على نفسي، تفرقت صديقاتي

مع باكورة الشباب، بعضهن تزوجن وبعضهن ذهبن إلى الجامعات وبقيت وحدي أعاني مع أمي وأخوتي، نعم أحب الحديدة، نعم أحن لأيام الطفولة فيها، ولكنها كانت قاسية وبخيلة معي، ولا أدري لماذا؟!

غمرت الدموع عيني ونزلتْ بصمت مثل المطر، أحببت مدينتي كثيرا، ولكني الآن لم أعد أعرف مشاعري نحوها، ولم يعد قلبي ينبض لرؤية البحر صديقي القديم، شعرت أني هنا في مدينتي أصبحت غريبة!

*****

وصلنا إلى المشفى مباشرة، كان قلبي يدق بعنف، كنت أشعر أن الكل يسمعه، هل سأقابل أبي؟

وصلت، رجلا غريبا لم يعد يحمل أي من الملامح التي احتفظت بها عنه، أهلكه المرض، عينان غائرتان، جسم نحيل جدا، يحمل سنوات أكثر من عمره. وقفنا حوله كلنا حتى جميل حضر عند إصرار خالي عليه، جميعنا حوله وهو يتمتم بعبارات لم أستطع سماعها، قد تكون اعتذارا ربما، سمعت اسمي يأتي من شفاهه المتعبة تقدمت، سمعته يقول بصوت خافت:

- أنا فخور بكِ، لقد أدرتي دفة القارب الصغير بما عجزت أنا وأخوتكِ على إدارته، أنتِ هبة الله لنا.

وعاد وأغمض عينيه ينشد قليلا من الراحة الباقية له قبل الراحة الأبدية، عدنا إلى منزل خالي وبقينا في منزله احتراما لدعوته ولإعطائه دور كبير الأسرة.

وكأن أبي شعر أننا هنا فقط ننتظر النهاية، غادَرَنا اليوم التالي، ساحبا معه كل الإمكانيات لمعرفة ماذا حدث؟ ولماذا حدث؟ غادرنا قبل أي إمكانية للنقاش والحوار والعتاب، رحل مرة أخرى، ولكن هذه المرة كان رحيلا نهائيا.

تعاونا على تكاليف الجنازة والقبر، حتى خالي ساهم رغم أنه وجد أمامه أسرة نجت من شر الفقر والعوز، ولكنه فضل أن يكون كبير الأسرة، حتى أخي جميل كانت حالته قد تحسنت نسبيا وخاصة مع مساعدة أمي له بين الحين والآخر. حضر الجنازة أصدقاء خالي وأصدقاء أخي جميل وحضر أيضا نادر، لا أدري متى أتى؟

في اليوم التالي استعدينا للرحيل مرة أخرى عائدين إلى صنعاء، ولكن بعد أذان الفجر بقليل وجدت نفسي تدفعني رغبة كبيرة للذهاب إلى المقبرة، تدفعني حاجة ملحة للتحدث إلى أبي، شعرت أني إذا حدثته أمام قبره سوف يسمعني بالتأكيد فلا مجال للهروب، وربما حينها سأسامحه، ليس من أجله، بل من أجلي، أريد أن أطوي تلك الصفحة وذلك الجرح الذي يؤلمني من حين إلى آخر ويذكرني بحرقة التخلي.

سرت خطوات قليلة حيث كانت المقبرة قريبة من سكن خالي، سحبت قدمي أسير ببطء والجو ما زالت تلفه برودة الفجر، شعرت بقشعريرة تهز جسمي لا أدري من برودة الجو أم من صمت المكان من حولي بصمت الأموات الذين أسير بين مقابرهم، وصلت لقبر أبي الذي ما زال نديا بسيطا كما كانت حياة أبي.

وقفت أمام القبر، قرأت الفاتحة ثم جلست أمامه على التراب وبدأت حديثي له "أبي ما الذي أخافك منا وقد كنا نقارب عمر العمل والمساعدة، ما الذي أخافك من تحمل مسؤوليتنا وقد كنا ثلاثة نمد يدنا معك، حتى سيف كان قادرا على المساعدة، ما الذي أخافك وأمي لم تطلب يوما ما شيئا لنفسها، لم تحلم لنفسها ولا لنا بثياب جديدة في العيد، لم تشته لنفسها ولا لنا وجبة طعام دافئة، لما رحلت؟ اعترف لي، هل رغبت باستكشاف الحياة دون ضجيج الأسرة؟، هل بكل بساطة مللت منا؟ ما زال السؤال يا أبي يلح عليّ لماذا تركتنا؟ أي مصير توقعته لنا بغيابك؟ ماذا لو أن أمي أيضا تزوجت وتركتنا؟ أليس من حقها هي أيضا أن ترى حياتها بعيدة عن مسؤولية أربعة أطفال قرر أبوهم التخلي عنهم؟ لماذا أعفيت نفسك من المعاناة وتركت أمي لمصير مجهول؟ من أعطاك هذا الحق؟!"

بدأ صوتي الهامس يتقطع بنذير بكاء، ولكني أكملت "سؤال أخير يا أبي لماذا عدت؟ كنت أقرأ الفاتحة على روحك كل حين وأخر متأملة أن ما منعك من العودة هو الموت، لماذا كسرت إيماني بهذا التخيل وتعود لتخبرنا أنك لم تمت وأنك كنت تحيا حياة طبيعية مع زوجة وأولاد، لماذا عدت؟" وبدأت أبكي بنحيب يحرق أعماقي وقبل أن أنهض شعرت بشخص يقف إلى جانبي، ومن كان؟ بالطبع نادر، نظرت إليه من خلال الدموع في عيني وقلت له:

- لقد كنت أحدث أبي، ولكن يا للعجب!! أعتقد أني كنت أحدثك معه وأتساءل كل تلك الأسئلة التي سمعتها له ولك.

مد يده لمساعدتي على النهوض، تركتها ممدودة ونهضت مبتعدة عنه بسرعة تجاوزت المقبرة واتجهت إلى البيت، لم أسمع له صوتا ولم أشعر بخطواته خلفي، هل بقي يحدث أبي أيضا؟

عندما عدت وجدت سيارة نادر تنتظرنا أنا وأمي وأخي، عندما استفسرت بنظراتي من أخي، قال لي إنه أعطي سيارته لجميل، لأنه يحتاجها في عمله كثيرا، تفاجأت من تصرفات سيف، وتأكدت عندها أنه أيضا تغير وأنه تعلم الدرس وعرف ان الحياة ألا يأخذ فقط وبأن يعطي أيضا. ظهر نادر من بعيد يسير بخطوات متثاقلة، أخذ مكانه في قيادة السيارة وعدنا إلى صنعاء بسيارة نادر – سيارتنا السابقة– والتي احتفظ بها الأب في انتظار عودة ابنه، جلستُ في الخلف مع أمي، نظر إليّ سيف بعتاب وجلس في الأمام، تحركت السيارة وكل منا نحن الأربعة نغوص في ذلك الشعور الذي يعطيه الموت والرحيل وانتهاء الحياة، سارت السيارة في طريقها وتأملت أمي هل تعيش ذكريات ذلك الماضي الذي كان؟ هل تستعيد في خيالها صورة أبي عندما كان شابا؟ صور من عرسها؟ لمحات من حياتها التي لم تعش يوما سعيد معه –على الأقل منذ أن استوعبت الحياة–؟ وأخي هل يفكر –إذا شاء الله وأصبح أبا– محاولة استكشاف كيف كان أبي يشعر بالأبوة؟ وكيف تخلى عنها؟ ونادر هل وجد في قصة أبي نموذجا كان يمكن أن يكونه أيضا؟ هل شعر أي

جريمة ارتكبها بحقي وقد عشت مرارة التخلي كاملة في الماضي؟ لا أدري! وجلست أستمع لهدير العجلات على الأرض ونحن صاعدون جبال تليها جبال، فغفوت.

*****

وصلنا وطلب نادر أن يبقى صادق عندهم يوما إضافيا حتى أتفرغ لرعاية أمي، كان محقا. دخلنا منزلنا ودخلت أمي حجرتها مباشرة، فلحقت بها، وسألتها عن حالها، جلست على السرير وجلست بجانبها، قالت:

- خولة أعلم أنكِ غاضبة من أبيكِ، نعم صدقتي، لا يوجد له عذرا إلا أن يكون قد مات، الآن مات فعلا، شرح لي بقدر ما مكنته قوته الباقية، كيف عانا في حياته وكيف نام شهورا طويلة على قارب مهجور، شرح لي أن الأيام سحبته وتحسنت أحواله قليلا عندما تزوج من ابنة رب العمل حتى يضمن مسكنا ومأوى لنفسه، خاف أن يعود خالي اليدين ونعاني مرة أخرى، لقد عاش حياة متعبة، أخذ جزاءه من الله تعالى، خولة أرجوكِ سامحيه، فقد كان هذا رجاءه الأخير.

سكت وتقوقعت في حضن أمي ونمنا، نحاول أن نسامح أبي. وكما تتحكم العادات والتقاليد بالناس، تحكمت بنا وأقمنا عزاء ثلاثة أيام في منزلنا، عزاء رجل لم يعش بيننا، حضرت الكثير من النساء التي تعارفنا معهن خلال تلك السنوات نساء لم يعرفن عن أبي إلا أنه مات منذ سنوات فكيف اليوم يقام

العزاء؟ وأقام أخي عزاء يوما واحدا في قاعة صغيرة، ولكنها اكتظت بالرجال من أصدقاء سيف وأصدقاء زوج خالتي وأصدقاء نادر ووالده وبعض من معارفه، كثيرون جدا الذين قدموا لنا التعازي في أبي، اتصل بنا خالد أخي وقالا أن الظروف لم تساعده على توديع أبينا، حجة واهيه وما زالت أمي تمنحه العذر مع أنه كان نموذجا أسوأ من نموذج أبي معنا.

كنت في العمل وكنا نقوم بدراسة جديدة أنا والأستاذة سامية وليلى والمحامي عادل حول حقوق المتقاعدين، كان عادل يشرح لنا جميعا، أنا والأستاذة سامية وليلى، ويلخص الحقوق الحالية ويوضح النقاط التي يجب أن نبحث بها، وزعت الأستاذة سامية المهام عليّ وعلى ليلى، فغادرت ليلى عائدة إلى مكتبها وجلست على مكتبي أستفسر من عادل على بعض القضايا والنقاط الغامضة، بينما كانت سامية تطالع بعض المراجع في المكتبة خلفنا. ظهر أمامي نادر أيضا دون مقدمات، ولكن على الأقل دون مفاجأة، تقدم منا ووجدت نظراته ترصد عادلا بغضب كبير ظهر واضحا في عينيه، اقترب أكثر ونهضت مرحبة به، فاستدارت إليه الأستاذة سامية وتقدمت ترحب بزميل قديم، فخفف حدة الغضب عندما تبين له أننا ليس وحدنا، قام عادل ورحب به سريعا قبل أن يلملم أوراقه ويغادرنا. جلس أمامي وجلست سامية أيضا سألته عن أخباره فقدم لها موجزا جميلا عن حاله، وسألها عن أخبارها فحدثته عن المشروع الذي نعمل عليه، ثم نهضت وودعتنا عائدة إلى مكتبها، نظرت إليه مستطلعة السبب لنقض الاتفاق بيننا، فقال:

- مر شهران يا خولة، أما آن الأوان؟

سكتُ، فقال:

- أنا مستعد لانتظاركِ ما تبقى من العمر، ولكن أليس هذا الوضع يشتت صادقا ويشوش معنى الأسرة لديه، ويوحي له بعدم الاستقرار؟!

سكتُ، لم أجد جوابا فقام وقال:

- الجمعة، بعد غد، سآتي إلى المنزل ونضع النقاط على الحروف، سأقبلها مهما كانت، لكن يجب أن نعود لحياتنا المشتركة، لحياتنا في منزل واحد، سأتقبل كل أسئلتكِ وكل شروطكِ، ولكن لم يعد هناك مجال أن تبقي بعيدة عني، لا أتحمل أكثر من ذلك.

وخرج مسرعا، وعادت كلمات أخي إلى خيالي "لا تدعي صادق يعيش بلا أب". هل جاء من أجل قول ذلك أم أن عادلا ولّد لديه الغيرة التي اشتعلت في عينيه، والخوف من أن أرحل وأسلك طريقا بعيدة عنه؟

(18) عودة وأمل

جلسنا على طاولة الطعام معا أنا وأمي وأخي وزوجته –كنا أحيانا نتناول وجبات الطعام معا– وتحدثت عن طلب نادر، أصبحت أثق برأي سيف وأصبحت حريصة أن تكون أمي على علم بكل شيء، طرحت الطلب ببساطة للمناقشة واضعة في عقلي أن القرار الأخير لي.

لا أستطيع القول بأني سامحت نادر، ولا أن حبه في قلبي لم يتأثر، ولكن كل من حولي نصب نفسه ناصحا، كل من حولي صورني مجرمة، أريد أن أحرم ابني من أبيه ومن حياة أسرية صحيحة، أوهموني أن عليّ اتخاذ القرار، ولكنهم كانوا هم من اتخذه!

وكان بأن أعود لنادر، ولكن عليه الانتقال إلى منزلي، لما عليّ تغييره، العمارة جميلة وحديثة، الحي أيضا جيد جدا، أخي ونوال صديقتي في العمارة المقابلة لعمارتي، لما أغير ما رتبته طوال سنوات غيابه، لألحق باختياراته وظروفه وأهله؟ لذا كان القرار أن ينتقل هو، وبالطبع يمكن له الالتزام بدفع الإيجار من الآن فصاعدا، وأصرت أمي على الانتقال إلى شقة أخي، ولكني أبقيت حجرتها في منزلي، لأضمن وجودها بيننا جميعا.

أعترف أن شيئا ما كان يقلقني، ولكني عدت لنادر تحت نصائح الجميع بإعطاء الأولوية لمصلحة ابني صادق، كنت أخشى أن أهُجر مرة أخرى، ولكني عدت. كان لعودة حياتي مع نادر في منزل واحد وضعا غريبا، فكرت كثيرا كيف نسامح ونتغاضى لأجل صغارنا أو لأجل حبنا أو لأجل أن تستمر

الحياة، لا أدري؟ مرت أيام كثيرة قبل أن أعتاد على وجود نادر مرة أخرى في حياتي، وقبل أن أعتاد عليه كزوج مرة أخرى، تغيرت أنا وتغير هو، تعلمت أن أمسك دفة حياتي بيدي وأن أحافظ على كل ما اكتسبته في حياتي، لم أعد أنتظر أن يخطط لي أحلامي ولا أن يصدر قرارات نيابة عني، وتعلمت أيضا أن أشاركه أخباري وأسأله عن أخباره، نعم أناقش معه ما يمر بي وأطلب منه إخباري بما يمر به حتى نؤسس شراكة حقيقية. هل نجحنا؟ لا أدري، ففي أعماقي ما زالت مرارة الهجر، مرارة الخذلان، ما زال بكاء صادق وهو صغير يرن في أذني في ليالي مرضه وهو صغير يتيم، ما زالت مرارة الفراق الذي لا ذنب لي فيه يحرق إحساس الأنثى في أعماقي بين الحين والآخر. ومرت الأيام تتلحف بلحاف الحياة الطبيعية.

(19) فرصة ثانية

بعد عودتنا لحياتنا المشتركة، وبعد مرور شهرين جاء نادر ليبلغني عن برنامج دولي في التكنولوجيا والعلوم الإدارية في أمريكا لمدة ثلاثة أسابيع لمجموعة من الفتيات والنساء من عدة دول، إذا كنت أرغب بدخول المنافسة، تشجعت بحماس أقل من المرة السابقة، قد أرغب وبشدة أن أرى العالم هناك، قرأت كل المعلومات عنه، كان يبدو برنامجا ثقافيا متنوعا ولكن كان يستحيل أن أذهب مع صادق ففقدت حماسي أكثر، أكد لي نادر أنها مجرد ثلاثة أسابيع ويمكن له ولأمي الاهتمام بصادق، ونفس الكلام سمعته من نوال وسهام، ولكني لم أقرر دخول المنافسة إلا بعد كلام منال التي أقنعتني أنها الفرصة التي كنت أحلم بها، عادت بظروف أفضل، ومدة البرنامج أقل، أقنعتني أنها فرصة للتعرف على العالم ولن تعاد مرة أخرى، كلام منال كان منطقيا متسلسلا، ومقنعا.

دخلت المنافسة، نجحت في الوصول إلى القائمة الأولية، ضمت القائمة عشر أسماء، قابلتهن في السفارة الأمريكية، عشر نساء كالورد، نشاط وتألق وتميز، كان مجال عملهن التكنولوجيا والهندسة والإدارة، وبمراكز إدارية متنوعة، دخلنا المقابلة، ووصلت القائمة لثلاث فائزات بالمنحة وكنت ضمن الثلاث.

شعرت بالفرح الممزوج بالرهبة، وشعرت أن الجميع لا يقف ضدي هذه المرة، حتى أمي فرحت فرحا لا يشوبه القلق، لم تخف عليّ هذه المرة! هل لأن

زوجي موافق، لا أدري؟ بدأت الاستعداد للسفر وتعرفت على الفتيات اللاتي سأسافر معهن، كانتا أصغر مني عمرا.

وقبل السفر بأسبوعين ولدت نوال، وجاءت ابنتها أول حفيدة لأسرتها، انشغلت مع نوال على الرغم من انتقالها إلى منزل أهلها، وجاء يوم السفر، حاولت أن أكون قوية ودعت الجميع واحتضنت صادق، وقد شرحت له بكلمات بسيطة أني سأغيب عنه قليلا، وسافرت.

وجدت نفسي أخيرا في أمريكا، أدهشتني بكل تفاصيلها، شوارعها وتنوع ناسها، وارتفاع عماراتها، وسرعة حركة السيارات والمركبات المختلفة، إنها بلد العجائب.

كان البرنامج مزدحما في كل يوم، تنوع ثقافي واجتماعي، قابلنا نساء متميزات سردن علينا تجاربهن، فهالني تشابه ظروف النساء حتى هنا في أمريكا، تواجه المرأة تحد وسيطرة وتهميش خاصة ذوات المهن العليا، ولكنهن لا يعرفن حجم التحدي والسيطرة والاستعباد الذي يعشنه النساء في بلادي، هنا في أمريكا يوجد قانون ينصفهن ويقدر جهدهن، لذا يستطعن الوصول إلى أعلى المناصب بقليل من الجهد.

دخلنا مؤسسات عالمية، الكل يعمل والكل مسرع، ساعات العمل طويلة، لذا حجم الإنتاج هائل، وتذكرت ساعات العمل في بلادي، ينتهي الدوام الساعة الواحدة في أغلب مؤسسات الدولة!

وكنت أرصد أن هذه الشركات الضخمة تضم رجالا أكثر بكثير من النساء، وتظل النساء رهن الأولويات الأزلية –الأمومة–، فتتعثر استمراريتهن في وظائفهن وفي دراساتهن العليا، الأمومة تلك الكلمة المشتركة بين نساء العالم، تلك الغاية التي تهمش كل الغايات وتتربع فوق أولويات أغلب نساء العالم.

كنت أقضي أياما رائعة تعرفت خلالها على زميلاتي اليمنيات، وظروف حياتهن المختلفة وأحلامهن وتطلعاتهن، فتيات متميزات، قويات، يعرفن طريقهن بوضوح، ولأول مرة في حياتي أتعرّف على مجموعات من النساء من دول عربية مختلفة مثل مصر، الأردن، تونس، الجزائر، المغرب، هالني اختلاف حياتهن عنا، فرصهن أكثر ومجتمعاتهن تتقبلهن كشريكات تنمية مثل الرجال، وظروف الحياة في بلدانهن أفضل بكثير، في اليمن لا نكافح على المستوى الشخصي فقط، ولا يعتمد نجاحنا على جهدنا فقط، نحن نحارب على عدة جهات ونحارب من أجل إثبات أنفسنا ولنيل أمنياتنا، ولكن هناك خيط رفيع يمر علينا كلنا كنساء عربيات أو أجنبيات، خيط يربطنا جميعا ويجعل لانتصاراتنا فرحة طفل لم يتوقع النجاح، فرحة ممزوجة بالدهشة، فرحة بعد معاناة.

عدت إلى اليمن، وعقلي يضج بكثير من المفاهيم الجديدة وكثير من الصور، إننا نعيش على جانب مختلف من الحياة، ولكنها الحياة وجميل أن نعيش تفاصيلها، ولا يمكن أن نقارن أنفسنا بأي فئة أخرى، لأننا لن نصل، ولأننا سنتعب، ولأننا سنخسر بهجة انتصاراتنا وانجازاتنا الصغيرة وسيظل الأفق أمامنا دون نهاية.

(20) الأمر سيّان

شعرت أن نادرا يحاول أن يكون الرجل الذي يعتمد عليه، يعمل مع أخيه، يهتم بنا، ولكني كنت أجده أحيانا مشتتا، مشغول بشيء ما يدور في عقله. كان ينعزل في حجرته مع جهازه لوقت طويل، يعيش شيئا ما لوحده ولا يود أن أشاركه رغم محاولتي اقتحام تلك العزلة. نضبت الاحلام في مخيلته، لم يعد يرسم لي أحلام ولا يخطط لنفسه مشاريع، كان سعيدا مكتفيا بوجوده مع صادق، أحبه كثير وتعلق كل منهما بالأخر كثير، راقبت العلاقة الجميلة التي تنمو وتزدهر وتأملت وجود الأب في حياة ابنه لأول مرة ودعيت الله من اعماقي ان لا ينفرط عقد أسرتي الصغيرة.

وهكذا مر عامان على عودتنا لبعض، بدأت أطمئن نوعا ما أو أحاول الاطمئنان، وزادت أسرتنا فردا جديدا، جاءت "أمل" تملأ حياتنا بهجة وكأنها تحاول أن تزيد من ترابطنا، وتعطينا الأمل، حظيت هي الأخرى بحب واهتمام أبيها، وكل من حولها، أصبحت زهرة الأسرة وأميرتها وتعلق بها جدها وجدتها أكثر مما تعلقا بصادق.

ولكني في أعماقي كنت أشعر بشيء ما غامض، يتكون في الخفاء، هل رحيل أبي مازال يحرك في أعماقي القلق، والذي ما إن قاربت على نسيانه حتى رحل نادر فأعاد ذلك الإحساس بعدم وجود الأمان، هل قلقي ناتج عن هذه التجارب المرّة أم أنه ناتج عن إحساس صادق ستظهره الأيام!

كنت أتقبل من صديقتي نوال لقب "معقدة" التي كانت تطلقه عليّ عندما أبث لها توجسي من نادر وخوفي من القادم، وكنت مرتاحة كوني "معقدة" على أن يتحقق قلقي وهواجسي.

وحدث ما كنت أخشاه، فجأة وليست مفاجأة، جاء نادر مبتهجا ليخبرني بوجود فرصة ذهبية للعمل في أمريكا وأن صديقه قد ساعده في سبيل تحقيق هذه الفرصة، وبدأ يحدثني ببهجة وفرح غريب، بأنه سيقوم باستدعائي عندما تستقر أموره خلال أشهر قليلة! كما قال سابقا بخصوص الاستدعاء إلى رومانيا، وأكد أن أمريكا البلد التي تعرفتُ عليها وأعجبتِ بها، وسنكون سعداء، وسيكون المستقبل أفضل لصادق وأمل.

*****

لم يكن ضمن أحلامي العيش في أمريكا، لم يكن ضمن خططي مغادرة اليمن، وأن أترك أمي وأهلي، لم أرسم لأولادي مستقبلا خارج وطنهم، فليبني أحلامه كيفما شاء وسأتمسك بأحلامي. المضحك أني شعرت بالمواساة حينما قرر الرحيل هذه المرة إلى أمريكا وليس إلى رومانيا، بأنه لم يفضل زوجته الأولى عني، ابنته الأولى عن ابنتي، وعلى أي حال قررت هذه المرة بأني المسؤولة عن المصير الذي ينتظرني منذ قررت العودة له، لست ضحية هذه المرة، إنها غلطتي عندما رضخت للمجتمع الذي كبلني بقيود الواجب والمعتاد واللازم والعادات والتقاليد والأعراف و....الكثير من القيود!!

لا نتعلم للأسف بأن المجتمع الذي ينصحك اليوم لن يهب لنجدتك غدا عندما تفشل نصائحه، وتجد نفسك وحيدا تصارع الواقع. لا أدري لما لا نتعلم من تجاربنا السابقة؟ ولماذا لا نجعل من مرارة تجاربنا شوكة تجرحنا إذا نسينا؟ ولماذا نسير وفقا لقرارات الآخرين؟ لا أدري لماذا كررت بكل غباء نفس التجربة؟ أم أنه الخوف من العادات والتقاليد التي تجعل المرأة المطلقة هدفا للقصص والنوادر، تجعل الأم الوحيدة مثارا للشفقة. لا يهم ... لا يهم إن كان سيغادر! ولا يهم متى سيغادر ومتى سيعود، الأمر سيّان، انتهى واجبي تجاه العادات والتقاليد والخوف والانتظار وانتهى واجبي تجاه نادر، الآن قررت أن أعيش حياتي دون انتظار القادم حتى وإن كان نادر، وقررت ان تكون دنياي صادق وأمل.

*****

ومرت الأيام تليها الشهور والسنوات....

استمريت في عملي على منوال جيد، زادت أعمال وأنشطة إدارتنا، ذهبت عدة مرات إلى مؤتمرات ممثلة للبنك، أنا والدكتورة جليلة التي كانت حريصة دائما على توسيع مشاركة البنك في الندوات والمؤتمرات وورش العمل التي لها علاقة بعملنا. والجديد أن الدكتورة سامية بدأت ترافقنا بعد أن أرخى أخوتها القيد أخيرا، ظاهرا يبدو أنهم اقتنعوا بأن شقيقتهم لم تعد بحاجة للحماية الصارمة، ولكن السبب الحقيقي أن بناتهم كبرن وأخذن مساحتهن من الحرية والحركة والسفر وأقنعن أهلهن أن هذا حقهن ولن يتركنه، فتقبلوا

التغيير، فكان ولا بد للدكتورة سامية أن تأخذ نصيبها من تلك الحريات التي حصلت عليها متأخرة مع تطلعات الجيل الجديد.

ومرت الأيام...ومرت السنيين...

قبل أن أدخل بوابة البنك بسيارتي الجديدة، سمعت الحارس يصرخ على شاب في مقتبل العمر، ذهبت إليه مستفسرة، نفس الحارس الذي صرخ عليّ قبل عشرين سنة، سألت الشاب عما يريد، وكانت دموعه محبوسة بقوة في عينيه، حريصا على حبسها، فقال بصوت مخنوق وبلهجة عدنية محببة:

- اسمي سعيد، ولكني لست سعيدا، جئت من عدن، مات أبي غرقا في البحر، ترجتني أمي أن نترك عدن، لم تعد تتحمل عدن دون أبي، لم تعد تتحمل رؤية البحر الذي قتل أبي، جئنا إلى صنعاء، أبحث عن عمل، لدي دبلوم إدارة وعملت في مكتب صحيفة، قمت بعدة أعمال فيها، أجيد الكثير من المهارات ومستعد لتعلم كل ما هو مطلوب مني، أريد أن أتحمل مسؤولية أمي وأخوتي، أريد أن أعمل فقط، وهذا ما أزعج الحارس فصرخ عليّ وكأني أتسول منه مالا.

نظرت إليه ووجدت ملابسه خفيفة صيفية، لا تحمي من برد صنعاء الحالي والذي لم يبدأ بشدة بعد، وكانت نظراته مزيجا من الغضب والحزن والرجاء، سألته:

- منذ متى وصلت صنعاء؟

رد:

- منذ شهر، أبحث عن عمل في كل مكان، لم أترك مكانا لم أبحث فيه، ففكرت، قد أجد فرصتي في مكان ضخم كهذا البنك، بدلا من الأماكن الصغيرة التي ترفضني حتى قبل أن أتحدث، لا أريد أن أفشل وأعود لعدن، لا أريد أن أخذل أمي.

ابتسمت له وللذكريات، لقد فكر كما فكرت في زمن مضى، "ربما أجد عملا في هذا المكان الضخم طالما ترفضني الأماكن الصغيرة".

طلبت منه أن يتبعني وابتسامة تَذكّر على وجه الحارس تصاحبني، دخلت إلى شؤون الموظفين، وعلمتُ من المدير بأنه لم يتم بعد توظيف مسؤول عن الطباعة، فطلبت منه أن يقابل سعيداَ عسى أن يكون مناسبا لهذا العمل. نظر إليّ سعيد مبتهجا غير مصدق، خرجتُ، لحقني، شكرني ووعدني أن يكون مثالا للموظف الملتزم الجاد، فقلت له:

- يجب أن تكون موظفا ملتزما جاد فعلا، فالحياة لا تمنح الفرص دائما، فلا تخسر فرصتك، إنه عمل بسيط، ولكنها البداية، فقبل ما يقارب العشرين سنة وقفت نفس وقفتك، صرخ عليّ نفس الحارس كما صرخ عليك اليوم، وكانت الفرصة التي وجب عليّ التمسك بها، وبدأت في هذا البنك سكرتارية لا أملك من خبرات الحياة إلا القليل، دون سند ودون أصدقاء، واجتهدت، فاجتهد.

غادرت وهو ينظر إليّ بدهشة!

****